مقتطفات
من رحلة العياشي

(ماء الموائد)

تتعلق بالحج ومشاعره ووصف المدينتين الكريمتين.

لعبدالله بن محمد العياشي
المتوفى سنة ١٠٩٠ هـ

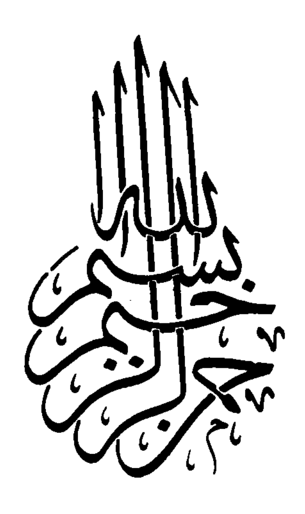
حمد الجاسر

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

منشورات
دار الرفاعي
للنشر والطباعة والتوزيع

ص.ب ١٥٩٠ الرياض ١١٤٤١
تلفون ٤٧٧٧٢٦٩

الغلاف من ريشة الفنان: محسن منصور



مقتطفات من رحلة العياشي

مرخص من المديرية العامة للمطبوعات

برقم ٣٤٢ / م

تاريخ ١٤٠٣/٨/٢٠هـ

تقديم

ليس ماسأعرضه على القارىء من مقتطفات من هذه الرحلة مماً يتعلق بالحرمين الشريفين، ووصف طريق الحج، وذكر بعض ما شاهده الشيخ العياشي في أثناء حجاته، ليس كلّ ذالك تلخيصاً للرحلة، ولكنه عرض لنصوص مختصرة، يتركز أهمها في وصف الطريق من مصر إلى مكة المكرمة، ثم لمحات موجزة ذات صلة بالحج، وبمختلف أحوال سكان المدينتين الكريمتين، وما بينهما.

والغاية من ذالك تشويق القارىء لمطالعة هذه الرحلة التي هي بحق كما وصفها مؤلفها(ديوان علم).

وهنا أمران يجب أن لا يعزبا عن الأذهان :

أولهما : أن المؤلف عاش في عصر يختلف عن عصرنا، ولهذا فقد تضيق نفوس بعض القراء ممن يجدون فيه أنماطاً من الأفكار والآراء، لا تتفق مع إدراكهم، ومبلغ علمهم، وخاصة ما يتصل بالطرق الصوفية، وبالأمور الروحانية، فالمؤلف ــ أسبغ الله عليه فيض عفوه وغفرانه ــ قد حشا كتابه بما يتصل بأحوال الصوفية، وما يتصل بفرقهم وآرائهم المختلفة.

مع أنه في كثير من المواضع يشدد النكير على من خالف الصحيح الثابت عن المصطفى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأصحابه وتابعيه بإحسان، في الأمور الدينية.

ولو نظرنا إلى كُلِّ مابين أيدينا مما خلفه لنا علماؤنا في مختلف العصور لما وجدنا إلا القليل ممّا لا تستسيغه أفكارنا، بل قلَّ أن نجد ما يخلو من الخطإ كما قال جلّ ذكره :(ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) والطريقة المثلى أن نقبل الحق أيّاً كان مصدره، وَنَرُدَّ ما عداه، ولا يكون هذا حائلاً بيننا وبين الاستفادة بما فيه نفع من تراثنا.

الأمر الثاني : أن هذه المقتطفات ماهي سوى نماذج لما في تلك الرحلة مما يتعلق بالموضوع الذي أُلِّفَتْ فيه، وليست شاملةً لكل ما ورد فيها، وقد(يكفى من القلادة ما أحاط بالجيد).

وما عملي هنا سوى تلخيص لأهم ما تعرض الشيخ العياشي للحديث عنه مماّ له صلة بالبلاد المقدسة وسكانها.

ولا أعتقد أن طباعة هذه الرحلة، ونشرها كاملة، يقلل من الاستفادة من هذا الملخص الذي سأعرضه.

وفي مثل هذا التقديم لابد من الحديث عن الرحلة في أصلها، وعن المؤلف.

الرحلة، ومؤلفها :

الرحلة العياشية، واسمها :**«ماء الموائد»**من أوفى رحلات الحج، بل هي أوفى رحلة اطلعت عليها، وقد ورد فيها :(وقصدي ــ إن شاء الله ــ من كتابة هذه الرحلة أن تكون ديوان عِلْمٍ، لاكتاب سَمَر وفكاهة، وإن وُجِدَ الأمران فذلك أدعى لنشاط الناظر فيها، سيّما إن كان صاحب تلوين، وأما صاحب التمكين فلكل شيء عنده موقع ونفع، لايوجد عند غيره)(١) انتهى.

والواقع أنها كما ذكر، فهي ديوان علم لِمَا حوته من المباحث العلمية المتنوعة، ومن الكلام على منازل الحج ومشاعره المقدسة، ومن وصف شامل للحجاز في القرن الحادى عشر الهجري في مختلف حالاته الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والإدارية. ثم هي كتاب سَمَر ومحاضرة لما تخللها من مباحث أدبيّة وقصص وأخبار ومقطوعات شعرية.

وتعتبر رحلة العياشي مصدراً لكثير ممن جاء بعده من الرحالين المغاربة، كابن ناصر وابن عبدالسلام والزبادي وغيرهم، ولهذا وصفه ابن ناصر في رحلته بأنه(إمام المرتحلين في زماننا)(٢) ولخص كثيراً مما جاء في رحلته، حيناً يصرح بالنقل منها، وأحياناً يفوته ذلك.

ترجمة العياشي : هو أبو سالم، عبدالله بن محمد بن أبي بكر العيّاشي المغربي المالكي من أهل فاس.

وهو منسوب إلى قبيلة من ألبَرْبر، تُدْعَى آية عياش.

ولد سنة سبع وثلاثين بعد الألف، وتلقّى العلم عن مشاهير علماء بلده كالإمام الأبّار، والشيخ مَيّارة، وأبي زيد بن القاضي، وعبدالقادر الفاسي، وهو

(١) ج ١ ص٢٢٤.

(٢) «الرحلة الناصرية» ج ١ ص٧٣.

عمدته. وفي درعة أخذ عن الإمام ابن ناصر الدرعي، وفي مصر عن الشيخ علي الأجهوري والشهاب الأميني شارح«الشفاء».

وحجّ مراراً أولها سنة ١٠٥٩[(١)] وسنة ١٠٦٤، وسنة ١٠٧٢هـ.

وجاور في الحرمين وفي القدس، وفي الخليل.

وتوفي في شهر ذي القعدة سنة تسعين وألف[(٢)].

مؤلفاته : للعياشي مؤلفات منها :

١ ــ «ماء الموائد» وهي رحلته ــ مطبوعة.
٢ ــ «إظهار المنّة،على المبشرين بالجنة» مخطوط.
٣ ــ مسالك الهداية.
٤ ــ «تحفة الأخلاء، بأسانيد الأجلاء» يحوي إجازات علماء الحرمين وغيرهم، للعياشي، ذكره في الرحلة[(٣)].
٥ ــ «تنبيه ذوي الهمم العالية، على الزهد في الدنيا الفانية».
٦ ــ الحكم بالعدل والإنصاف.
٧ ــ اقتفاء الأثر.
٨ ــ «سوق النفوس، وأنس النفوس» رسالة في التصّوف، من مخطوطات خزانة الرباط(برقم ١١٠١(D١٣٨٨).
٩ ــ أرجوزة في ٣٧٠ بيتًا في الفقة، من مخطوطات خزانة الرباط(برقم ١٦١٨) ١٢٣٦(و ١٦١٩ D١٤٣٩)[(٤)].

رحلته : طبعت رحلة العياشي على الحجر بالخط المغربي في مدينة فاس سنة ١٣١٦هـ في جزأين ٤٥٦و ٤٢٢ صفحة = ٨٧٨ صفحة + ٨ + ١٦ ــ فهارس وتقاريظ وإصلاح تطبيع.

---

(١) رحلته ١/٨٨م

(٢) ماتقدم ملخص من مقدمة الرحلة.

(٣) ج١ ص٤٤٣ و٤٤٥.

(٤) عن مقدمة الرحلة و«معجم المطبوعات» و«الأعلام» والعياشي مترجم في تاريخ الجبرتي و«الأدب الجغرافي»، ودائرة المعارف الإسلامية باللغة الانجليزية ص٢٢٣ طبعة ليدن .

وقد أعيد نشر تلك الرحلة بطريقة التصوير سنة ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م، وقام الأستاذ محمد حجي ـ أستاذ التاريخ في كلية الآداب في مدينة الرباط ـ بوضع فهارس عامة لما فيها من أسماء الأشخاص والأماكن والكتب، ألحقت بالجزء الثاني من تلك الرحلة في ٥٠ صفحة.

وهذه الرحلة تتضمن وصف خروجه يوم الخميس أول ربيع الثاني سنة ١٠٧٢هـ للحج من مراكش حتى وصوله مدينة القاهرة في ٢٦ رمضان سنة ١٠٧٢هـ.

وهذا القسم من الرحلة يقع في ١٢٥(من أول الجزء الأول) ثم وصف إقامته في مدينة القاهرة إلى يوم الخميس ٢٧ شوال من السنة المذكورة من ص ١٢٥ إلى ١٥٧ من الجزء الأول. ثم الكلام من خروجه من القاهرة حتى بلوغه مكة المكرمة في اليوم الخامس من ذي الحجة من ص ١٥٧ إلى ص ١٦٠ من الجزء الأول).

ثم ذكر خروجه من مكة بعد الحج، ووصوله المدينة في ثاني المحرم سنة ١٠٧٣هـ ثم إقامته في المدينة(من ص١٦٠ إلى آخر الجزء ٤٦٦، لا كما جاء في المطبوعة ٤٥٦ [1]).

وفي الجزء الثاني وصف إقامته في المدينة إلى ١٥ شعبان سنة ١٠٧٣هـ ثم رحيله إلى مكة ووصوله إليها وإقامته فيها لأداء الحج، ثم رجوعه إلى المدينة في ١٨ ذي الحجة سنة ١٠٧٣هـ(من أول الجزء الثاني إلى ص ٢٨٧ منه) ثم ذكر إقامته في المدينة إلى اليوم الثاني من شهر المحرم سنة ١٠٧٤هـ(فى عشر صفحات إلى ص ٢٩٧).

ثم تحدث عن عودته بطريق العقبة، حيث وصلها في آخر شهر المحرم ١٠٧٤هـ(في ثلاث صفحات من ٢٩٧ إلى ٣٠٠).

---

(١) عند تصوير الرحلة أصلحت أرقام الصفحات المكررة، وقد نقلت من المطبوعة فأحلت إلى صفحاتها، ثم طالعت المصورة فأصلحت بعض الصفحات، وفاتني إصلاح بعضها، فأرجو التأكد من صحة رقم الصفحات بمطابقته على ما بيد القارىء من إحدى النسختين، المطبوعة أو المصورة.

ومن العقبة سار إلى غَزَّة في ٢٩ المحرم سنة ١٠٧٤هـ فبلغها سابع صفر ومنها سار إلى مدينة الرملة ثم إلى القدس، ومن القدس سار في ٢٣ صفر إلى بلدة الخليل، ثم غادرها في ٢٦ صفر إلى غزة(من ص ٣٠١ إلى ٣٥٢).

وسار من غزة في سابع ربيع الأول إلى الخان، ومنه إلى العريش فدمياط، ومن دمياط بحراً إلى بولاق، فالقاهرة، ومنها إلى الإسكندرية(بطريق النيل) فبلغها سادس ربيع الثاني(من ص ٣٥٣ إلى ٣٦٠).

ومن الإسكندرية سار عائداً إلى طرابلس فبلغها في ٢٢ ربيع الثاني. وأقام فيها إلى اليوم الخامس من شهر شعبان(من ص ٣٦١ إلى ص ٤٠٣).

وسافر من طرابلس إلى بلده حيث وصل في اليوم السابع عشر من شوال، وتحدث عن ذلك من(ص ٤٠٣ إلى ص ٤٢٢ وهو آخر الجزء الثاني).

وسالُخَصُ للقارىء كلّ مايتعلق بالحج من وصف طريقه من البركة ــ بقرب القاهرة ــ ماراً بصحراء سيناء، حتى العقبة، ثم بمحاذاة ساحل بحر القلزم(البحر الأحمر) إلى ينبع، ثم إلى بدر، فالمدينة أو مكة، ثم وصف المدينتين الكريمتين، ومشاعر الحج المقدسة، والطريق بين الحرمين، وما يتخلّل ذلك حتى العودة إلى البركة.

وقد يقال : إن الرحلة مطبوعة، فلماذا هذا العمل والكتاب متداول؟! والجواب :

(١) أن الكتاب مضى على طبعه زمن طويل، فأصبح في حكم النادر، إن لم يكن في حكم المفقود.

(٢) طبع الكتاب على الحجر مُصوّراً ــ بالخط المغربي الجميل الذي هو فرع من الخط الكوفي القديم، وهذا النوع من الخطوط ــ مع جماله ــ قلّ من يُحسن قراءته من المشارقة. ولهذا لم يتمكن تجّار الكتب من إعادة طبع هذا الكتاب، مع طبعهم رحلات كثيرة تعتبر بالنسبة لهذه الرحلة ليست بذات قيمة علمية.

(٣) :تعتبر رحلة العياشي مصدراً هاماً من مصادر الرحلات إلى الحج.
والواقع أنها جديرة بالدراسة العميقة ولاسيا مايتعلق منها بالحجاز، فهي — ولا شكّ — من أوفى المراجع وأصحها — لكل من يريد أن يدرس أحوال هذه البلاد في القرن الحادي عشر الهجري.
وليس من المبالغة القول بأنها تَفْضُلُ كلَّ الرحلات التي وصلت إلينا مطبوعة. فيما يتعلق بذالك القرن — بدون استثناء —.

فطباعة الكتاب برزت بصورة لاتُهيىءالاستفادة منه لكل قارىء، فالخط المغربي — مع جماله، وصلته الوثيقة بالخط العربي القديم — تستعصي قراءته على كثير من القراء في المشرق، ويضاف إلى هذا ندرة نسخ تلك المطبوعة.

وحياة القارىء — على وجه الإجمال — في هذا العصر تتطلب السرعة، والاكتفاء بالمعلومات المجملة.

أما من اتجه للتخصص في الدراسة، تخصصاً يتطلب التعمق والإحاطة بموضوع تلك الدراسة، فقد يكون فيما عرضته من الكتاب من وسائل الترغيب ما يدفعه لدراسته كاملاً.

والحمد لله أولاً وآخراً.

حمد الجاسر

في الطريق إلى مكة

في الطريق إلى مكة المكرمة

البركة :

كان ارتحالنا من مصر بكرة يوم الخميس السابع والعشرين من شوال(١٠٧٢هـ)، وفي ذلك اليوم خرج معظم المغاربة ، ونزلنا قبل الظهر بالبركة... وعند نزولنا أخذ المصري في الارتحال، وتلك عادة في الرحيل في اليوم السابع والعشرين، ورجع المشيّعون له من هنالك، وأكثر المتسوقين في ذلك اليوم.... وبات هنالك من عيّن لحراسة الركب من الجند، لأن العادة من يوم خروج الركب المصري إلى العادلية ثم إلى البركة يعيّن للخروج طوائف من العسكر، ينزلون من مصر إلى القاهرة ليلاً ونهاراً ولا ترجع العساكر من هنالك حتى ترتحل الأركاب كلها.

ولم يخرج آخر المصري من الدار إلا قرب المغرب، وبات الركب المغربي هنالك.

ولما كان أمر الناس في هذه السنة متفقاً، وأميرهم إلى كثير من الخيرات مستبقاً، نادى مناديه عشاء :(أن لايرتحل أحد حتى يصلي الفجر، ويضرب الطبل، فيزول الحجر) وبعد صلاة الصبح من يوم الجمعة أخذ الناس في الارتحال، وأثيرت الرحال، واستقبل بها مستقبل الشمس، ووجهة الصلوات الخمس... فودعنا صاحبنا الشيخ علّياً الدمشقي، وهو رجل من أهل الخير لم نر أصدق منه لهجة... يبيع الكتب في الأزهر (١) .

(١) الرحلة : ١ /١٥٨.

الدار الحمراء :

ثم سرنا ـــ بعد الفجر من البركة ـــ ذلك اليوم في أطيب هواء لا حرّ ولا قرّ.... وقد تأخرنا بجماعتنا ضحى، فظهرت لنا بالبيداء خيل قليلة، همّوا أن يقتطعونا دون الركب فلما تهيأنا لمقاتلتهم فرأوا الجدّ منا تجنّبونا.

ثم نزلنا الدار الحمراء عند العصر ووجدنا آخر المصري في المنزل.

عجرود :

ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا عجرود، عند المغرب، وماؤه يضرب به المثل في القبح، واشتهر بذلك مع وجود ما يضاهيه كثيراً في مياه الدرب، لأن ذلك كان أول ماء يرده الحاج قبل أن يألف مشاقّ الطر يق، ومع اعتياد الناس قبل ذلك لماء النيل، ووجود فضلة منه، لايكادون يسيغون منه جرعة، إلاّ وهمّت من بطونهم بالرجعة.

وفي هذا المورد حصنان متقاربان مبنيّان بأوثق بناء، يترك الناس فيهما ما استثقلوه من الأزودة والأمتعة إلى الرجوع.

وكثيراً ماتعطب المِئُونَ من الإبل في هاتين المرحلتين، لجدّ السير وثقل الأحمال، إذا لم يخفف منها بشيء، والإبل قد ألفت الراحة بمصر، و يغلب عليها السمن، وكثير من الناس لايشفقون عليها، فيحمّلونها فوق طاقتها، ولا يرفقون عليها في المشي، لما يتوقعون من خوف اللصوص على من تأخر، فكل واحد ير يد أن يتقدّم.

وفي أحد الحصنين اللذين هناك بئر كبير، يسقي دائماً في البقر، ويخرج الماء من البئر إلى برك ثلاث خارجة، ثنتان صغيرتان والثالثة كبيرة، وصورتها هكذا :

كبيرة	صغيرة
	صغيرة

وعمق كل واحدة نحو العشرة أذرع، ودور الكبيرة نحو الثلاثين ذراعاً في نصفها، وكنا خشينا أن لانجد في البرك ماء، لأن الركب المصري يشربه في الغالب، فلا يدع فيها شيئاً، فوجدنا الماء ـــ بفضل الله ـــ فاضلاً، أخذ الناس حاجتهم

منه بلا كلفة، ولم يكثر الناس السّقي منه لعزمهم على ورود ماء النابعة، والمشي على طريقها.

وفي الحصنين المذكورين عسكر لايفارقهما أبداً وكذلك غيرهما من البنادر، في كل سنة يأتي قوم، فيذهب الذين كانوا فيه، ولهم جراية من بيت المال على ذلك.

النابعة :

ثم ارتحلنا من عجرود قاصدين للنابعة، وعدلنا عن طريق الحاج التي فيها المصانع يميناً.

والمصانع سواري مبنية في سبخة لايظهر فيها أثر الطريق، فجعلوا تلك الأعلام المبنية ليستدل بها على الطريق، وجعلوا في رؤوس الأبنية حجراً مستطيلاً، خارجاً إلى ناحية الطريق، ليستدل به الماشي ليلاً، وربما علّقوا على بعض الأعلام مصابيح بليل، وبين كل علم وعلم نحو من فرسخ أو أقل، حتى انتهوا بها إلى طريق الرمل.

وعلى هذا الطريق يسلك الحاج المصري دائماً وكذا المغربي إلاّ في أوان الحر، وخوف العطش فيعدلون إلى النابعة على طريق المصانع حتى يظهر لنا البحر، وتقرب منا مدينة السّويس جدّاً، حتى يكاد الإنسان أن يتبين من هو بخارجها...

فلما تجاوزنا وجاه المدينة، وخلّفناها وراء ظهورنا والبحر عن يميننا، نزلنا بعد الظهر بالنابعة، وهو واد كبير، ذو رمل فيه أحساء كثيرة تزيد على المائة، بل أين ما حفرت مقدار وقفة أو أقل وجدت ماء حلواً بارداً في غاية الحلاوة، كأنه ماء النيل، بل ربما يتوهم أنه أحسن منه، وسقى الناس منه إبلهم وأخذوا منه حاجتهم.

ووجدنا الأعراب الشّعارة الذين يحملون الفول مع المصري قد نزلوا هناك وتلك طريقهم دائماً، ومعهم جملة من الخيل الدرب[1] ، وكانت هذه المسافة قبل ذلك يتدرّك بها أقوام من العرب، ثم إنهم نافقوا(؟) وذهبوا إلى ناحية غزة، وتدرَّك بها آخرون، فخاف الناس في هذه السنة منهم، فكفى الله شرهم[2] .

وادي الخرّوب :

ثم ارتحلنا من النابعة، وسلكنا بين جبال في أودية من الرمل، وكان الهواء بارداً والماء عذباً والناس ماشون على مهل، منبسطون غاية البسط. وكنت أقول لأصحابنا ممازحاً : من عدّ هذا اليوم من أيام الدرب فقد ظلمه، لأنه خالف الدرب في سائر أوصافه، فإن طريق الدرب معروفة بالماء القبيح، والحرّ والخوف، وهذا اليوم بخلاف ذلك، ولم نبت تلك الليلة حتى توسطنا وادي الخرّوب حيث تلتقي طريق النابعة وطريق المصانع، وسمي الوادي بشجرة من الخروب كبيرة في أصل الوادي.

ثم ارتحلنا من هناك وسرنا في الوادي مدة، ومررنا بالعقبة المشرفة على التيه، وهي عقبة فيها بعض صعوبة إلا أنها قد سويت، وبنيت بناء متقناً حتى صارت طريقاً لاحباً، ونزلنا فيها إلى أرض التّيه بعد طلوع الشمس.

التّيه :

وهي أرض مقفرة موحشة طويلة عريضة معطشة، قد امتدت فيها الطرق امتداد السطور في الطروس، لم يلحقها على قدم العهد دروس، وهذا المحل من المحال التي تعظم فيها المشقه أيام الحرّ، وقد تتلف فيها أنفس كثيرة بالعطش.

وقد وقع لنا مثل ذلك في سنة ٥٩ ارتحل الناس من عجرود ظهراً، ولم يمروا على النابعة فبتنا ليلتين بلا ماء إلا ماء عجرود، الذي لا يتجرعه الظمآن ولا يكاد يسيغه، فلم نصل إلى أرض التّيه حتى اشتد الحر في اليوم الثالث، وقلَّ

---

(١) في الهامش :(خ : الدرك).

(٢) «الرحلة» : ١ /١٦٢.

الماء ومات بعض الإبل وجعل بعض الناس يعصرون ما في بطون الإبل، من الفرث و يشربونه وفي ذلك قلت :

ولم أنس بالستّيه يوماً به
تفانَى الحجيج صدى وولوها

وإن يستغيثوا يغاثوا بما
ءِ عجرود، كالمهل يشوي الوجوها

وأما في هذه السّنة فلم يلق الناس فيه أذى لوجود الماء العذب، ودخلناه على أول النهار ولم نبت حتى قاربنا بندر النخيل.

النخيل :

وفي الغد أتينا النخيل صباحاً، ووجدنا الركب المصري قد بات به، وصادفنا هناك سوقاً كبيرة، فيها كثير من أنواع الفواكه الشامية أتى بها أهل غزّة مثل التفاح واللوز وغير ذلك.

وهناك بندر حصين فيه بئر ماؤه عذبة(؟) كبيرة(؟) لا تنزح أبداً، يسقى منها بالبقر إلى برك خارج الحصن، وهي ثلاثة مثل البرك التي في عجرود، إلاّ أن هذه أعظم منها.

وقد وجدنا الماء فيها فاضلاً عن الركب المصري، وأخذ الناس منه حاجتهم، وكان أمره قد أهَمَّنَا قبل ذلك، لأنه من المواضع التي يصعب فيها الماء، إذ ليس فيه إلاّ بئر واحدة، فإذا شرب المصري ما في البرك وقعت الزحمة على البئر فلا يصل الناس إلى الرّي إلاّ بعد حرج شديد ومشقة فادحة.

فلما جنّ الليل ورحل المصري كله خرج أصحابنا المغاربة وعسكروا خارج ركبهم، إرهاباً للعرب لأنهم قد استقلونا، فظهرت لهم في الركب قوة نار، وكثرة رجال، وكنّا قبل ذلك ربما يظهر بعض السراق بالليل، فمن ذلك اليوم لم نر سارقاً بالليل ولا محارباً بالنّهار.

وممـا مـنّ الله بـه عـلـى ركـبـنـا فـي هـذه الـسنة أن قلّ فيه الفلاحون الذين يكثرون اللغط والزحمة في الركب.

وقد كـانـوا فـي غـالـب الـسـنين يـكثرون في الركب المغربي فراراً من جور عسـاكـر المصري، عـليهـم فـيكثر صخبهم وخصوماتهم، فلا يكاد ينضبط للركب المغـربـي أمـر مـن كـثرتهم فيه، يرحلون في غير إبان الرحيل، و يتبع الآخر منهم الأول مـن غير تـأنّ، سيما فـي محـل الـضـيـق والخـوف، ولا يـبـالـون بما أتلفوا من أنـفسهم وأموالهم خشية التأخر والمزاحمة على القرب من أول الركب، لغلبة الجبن والخور عـليهـم إذ لا يـعـرفون في بلادهم قتالاً ولا مدافعة عن الأنفس والأموال، لـكـونهـم رعـايـا إن شـتـمـوا مرّوا وإن ضربوا فرّوا وكل مانقص الله من جهدهم وجـرأتهـم و بـسـط أيـديهـم زائـد فـي ألـسنتهم، حيث لايخافون فيبالغون في الشتم والـسب حتى لايكاد سامعهم يملك نفسه، فإذا رأوا من همّ بضرب خضعوا وقالوا : عـافيه يا مغربي عافيه. و يقولون : المغاربة مجانين لايعرفون إلا الضرب، وكان الضرب عندهم أبعد بعيد يصدر من شخص عاقل.

ولـعـمري إنه لكذلك في حق كل مسلم لمسلم ولكن الغريزة الغضبية ممن لم تذله الأحكام، ولم تكسر من سورته شدة الأيام لايملكها إلا الأقوياء.

وممـا أعـان عـلـى جمع كلمة الركب المغربي في هذه السنة أيضاً ذهاب كثير مـن أهل الدّثور من المغاربة مع المصري، اتقاء من شدة الحرّ بالنهار، ولم يبق في الـركـب المـغـربـي، إلاّ أهـل المـروءات من الناس، وأهل الخير، وذوي الحفاظ، وتـعـمَّـر الـركـب بـالأذان والصّلوات، ورفع الأصوات بالذكر والصلاة على النبي صـلـى الله عليه وسلم وألّف الله بين قلوب أهله، فلا يرحلون بليل، و ينزلون قبل الليل واتفقت كلمتهم.

وقـد كـانـت الأركـاب قـبل ذلك لقلة الإتقان يقولون : شيخها جمل يعنون بـرغـاء الجـمـل يرتحلون لا بإذن الشيخ، فأول من يسمع رغاء بعير يظن أن الناس يـرتحلون فيقوم إلى بعيره، فإذا رآه الذي بجنبه قام، ثم كذلك حتى يرتحل الركب مـن غير إذن شـيـخ ولا مـشـورته، وربما يرتحلون وسط الليل فيتمكن اللصوص من الإيـقـاع بمـن تأخر أو انفرد عن الركب، ويحصل من ذلك ضرر عظيم، ولا يكون

ذلك إلاّ من كثرة الأخلاط، وغلبة الآجانب على المغاربة، فإذا انفردوا – كهذه السنة – كان أمرهم جميعاً، فمن رأى ركبهم وهو نازل يظن أنه قليل، وعند الرحيل تظهر كثرته وقوته، سيمّا إن حصل فزع، وبادر الناس إلى السلاح وتهيأوا للكفاح سرّت الخائف رؤيتهم، وأبهجته نجدتهم :

ثقال إذا لاقوا خفاف إذا دعوا
قليل إذ عدّوا، كثير إذا شدّوا

برّ الصعاليك(بئر البارود) :

ثم ارتحلنا من النّخيل، ونزلنا برّ الصعاليك ويسمى بئر البارود، وهي بئر كبيرة طويلة مطوية بحجر وبناء متقن، في أصل وادي. وبجانب البئر أثر بناء وبركتين، إلا أنه لاعمارة عليه، وماؤه بارد إلا أنه قبيح لايكاد الشارب يسيغه، وسقى منها بعض الفلاحين الإبل. وماتت في الركب تلك الليلة امرأة موسرة من أهل تونس، وكانت لها محفة رفيعة تحمل فيها، فلما ماتت أوسعوا في حفر قبرها ودفنوها بمحفّتها، وذلك غلوّ وبدعة وتضييع مال، فإن المحفّة لها مال وقيمة، وحضر أمير ركب تونس وكبراؤهم ولم ينكر ذلك أحد منهم.

عرقوب البغلة – سطح العقبة :

ثم ارتحلنا من(بئر البارود) ونزلنا بأول سطح العقبة، وقد مررنا ظهراً بموضع يقال له عرقوب البغلة، وهي عقبة فيها بعض صعوبة إلاّ أنها قد سوّيت وبنيت، واتخذ على جانب الطريق مسجد صغير غير مسقّف، وذلك من عمل الأمير رضوان المتولى لإمارة الحاج أزماناً طويلة قريبة من ثلاثين وتوفي سنة ست وستين أو قريب منها، وكانت له آثار حسنة في طريق الحجاز من قطع الأشجار، وإزالة الأحجار، من الطرقات وحفر بعض الآبار، وتجديد بعض البرك، فجزاه الله خيراً، فلقد كانت له همة عالية في تخليد المآثر. فكم بالغ في الثناء عليه كل لسان، وأعلن بالدعاء له كل إنسان.

وإنمـــا المـــرء حـــديـــث حـــســـن (١)
فـــكـــن حـــديـــثـــاً حـــســـنـــاً لمـــن وعـــى

وبتنا بسطح العقبة وكانت ليلة باردة، تزمّلنا في ثيابنا فلم تغن شيئاً كأنآ بتنا في بعض جبال المغرب، وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، فإن الموضع وإن كان يعد في بلاد الشام وهي باردة، فالفصل فصل حرّ لا طمع للمسافر فيه في أقل من ذلك من البرد.

وقد عاتبنا من لم يجرب الطريق من أصحابنا وقالوا : كنتم تخوّفونا بالحرّ حتى تركنا ثيابنا بمصر، فقلنا لهم : ستردون فتعلمون، وإن تظلمتم فلا تظلمون.

العقبة :

ثم ارتحلنا من السطح وأخذنا في نزول العقبة بعد طلوع الشمس، وهي عقبة كؤود، صعبة الهبوط والصعود، ولم لا وهي أيلة المشهورة، إلاّ أن الطريق بها منحوتة قد سوّيت في أكثر الأماكن الصعبة، وبنيت حافاتها ببناء متقن.

ولما كان المحلّ معروفاً بتلصص الأعراب وحرابتهم تهيأ الناس، وأخذوا حذرهم، وأخرجوا أسلحتهم، خوفاً من عدوانهم، فإن الغالب أنهم لابدّ أن يتعرضوا للركب في هذا الموضع لصعوبته، وتقدمت طائفة من الحجاج بمدافعهم أمام الركب، وتأخرت طائفة(وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً).

ولم نر بها سارقاً ولا غائراً، ونزلناها على مهل، وبعد أن نزلنا من المنحدر الصعب جعلت الطريق تلتوي في شعاب كأنها أزقّة، يكثر فيها المخاوف والمتالف، فيرى البحر من بعيد فيظن قريباً، ولما وصلنا إلى البحر تأخرنا لدفن بعض الأشراف، مات بعد النزول من العقبة مطعوناً، وخشي أقاربه من جور الولاة إن أوصلوه إلى البندر فدفن هناك (٢)....

---

(١) الصواب :(حديث بعده) وهو من مقصورة ابن دريد.

(٢) الرحلة : ١ /١٦٧.

ووصلنا إلى البندر عند الظهر، وفيه حصن حصين، في قرية على شاطىء البحر في سفح جبل، وبها آبار كثيرة، وفيها نخيل وسوق كبير، يحضره أهل غزّة، وتأتيه الأعراب بالإبل والغنم والسمن والعسل، والعلف للدواب. ووجدنا الفول رخيصاً أرخص ممن اكترى عليه من مصر، وبتنا بها، وبات المصري هناك، وأوقد بالليل نيراناً كثيرة، وضرب المدافع ورمى المحارق في الهواء، ولها منظر عجيب، وأسلوب غريب، كأنها شهب النجوم يرمى بها من الأرض إلى السماء، فتراها في الجو طالعة حتى ترى من أعالي هام شوامخ الجبال دونها. ثم تنعطف راجعة كأنها ثعبان، ثم يسمع لها صوت وتخرج منها شرارات من النار فإذا انقطعت تلك اتبعها بأخرى، وخروجهن فيما ترى من نار زرقاء كأنها نار الكبريت، تشتعل اشتعالاً قوياً، فتطلع منها تلك الشهب، ولانعلم صنعة ذلك وهي من الغرائب، والرامي بها وبالمدافع عادة المصري في كل منزل أقام فيه إذا أراد الرحيل.

وقد سألنا هناك وبحثنا عن أثر القرية التي كانت حاضرة البحر هل بقي من رسومها شيء فقد ذكر المفسرون أنها أيلة فلم نجد من يشفي لنا خبرها.

وقد ذكر لنا بعض الناس أن بأعلى الوادي أثر بناء كثير يشبه أن يكون مدينة ولعلها هي.

وقد أخبرنا كثير من متسوقة الأعراب الذين هنالك أنّ وراء الجبل الكبير المشرف على القرية بلدة فيها نخل وماء، إلاّ أنها خالية ويمكن أن تكون هي فإنها قريبة من البحر، والعلم عند الله.

وقال في وصف العقبة عند عودته : من المويلح، إلى العقبة : ارتحلنا من المويلح بعد الزوال، ونزلنا حيث تنعطف الطريق يميناً عن البحر، وفي الغد مررنا بعيون القصب، وفتناه غير بعيد ونزلنا، وفي الغد نزلنا مغارة شعيب قرب المغرب، وفي الغد ارتحلنا بعدما طلعت الشمس وارتفعت، وبتنا أعلى الوادي دون شرف بني عطية، وفي الذي يليه نزلنا أسفل الوادي قريباً من البحر حيث تميل الطريق إلى ظهر الحمار وفي الذي يليه نزلنا العقبة ظهراً[1].

(١) «الرحلة» : ٢ / ٣٠٠.

ووجدنا أهل غزَّة وأهل معان قدموا بعنب كثير وفاكهة، وبات الناس بها تلك الليلة وأقاموا غداً وارتحلوا يوم الأحد التاسع والعشرين من محرم، وأقمنا بعده يوماً.

وزرنا ــ في ذلك اليوم ــ قبر الشيخ إبراهيم اللقاني[1]، وهو دون البندر في مقبرة هناك، معلم عليه بأحجار، وما عرفناه إلاّ هذه المرة دلّنا عليه بعض أصحابنا الأفريقيين.

حفاير النخل ــ ظهر الحمار:

ثم ارتحلنا من العقبة، وسرنا في مسلك ضيّق، بين البحر والجبل، لايمرّ فيه، إلاّ جمل إثر جمل، كأنه متن السراط، إلاّ أنه غير مستقيم، وقلما يخلو هذا المحل من لصوص، يتعرضون للركب فتشتدّ إذايتهم وتعظم نكايتهم، ولكن ذلك في الرجوع أكثر، ولم نر في يومنا هذا بأساً.

ونزلنا ظهراً بموضع يقال له ظهر الحمار، على بسيط من الأرض أحرش مرتفع، يطلع إليه من مسلكين لايخلو من صعوبة، وتحته على شاطىء البحر أحساء كثيرة، في وسط حدائق نخل، وماء ذلك المحل كله طيب، وقد يسمى ذلك المحل في زماننا هذا حفائر النخل، وقلما تخلو من عمارة بعض ضعفة الأعراب، سيما في وقت جذاذ النخل، ويكون فيها في ذلك الوقت رطب جيد[2].

شرفات بني عطية ــ عش الغراب:

ثم ارتحلنا منه وخلفنا البحر يميناً، وسرنا يومنا في صعود إلى نحو العصر، فوصلنا إلى موضع يقال له شرفات بني عطيّة، وبنو عطية، هم عرب هذه البلاد كلها في هذا الوقت، ويقال لهذا المكان أيضاً عش الغراب.

---

(١) ذكر أنه توفي راجعاً من الحج سنة ١٠٤٠ ــ ج١ ص١٤٤.

(٢) هذا الوصف ينطبق على حقل، الذي أصبح الآن مدينةً.

غريبة :

تزعم العرب أنّ الإبل تنفر في هذا المكان، ويقولون : إنها تسمع صوت صقب ناقة صالح، وأنه في ذلك الجبل، وأن هنالك الصخرة التي دخل فيها لما عقرت أمّه، فالإبل إذا وصلت إلى ذلك المحل تسمع صوت العشار فتنفر.

ولا أدري من أين لهم ذلك، وهو بعيد، إذ ليست هذه ديار ثمود، الذين عقروا الناقة، وهم قوم صالح عليه السلام.

أبو العظام :

ثم انحدرنا من الشرفات إلى محل النزول، ويسمى أبو العظام وبه ينزل المصري، ونزلنا به، وتسوقنا بعض نساء العرب بلبن وغيره، وأخبرونا أن من وراء الجبل الذي على يسارنا بلداً واسعاً فيه ماء جار، وأرض مخصبة، وربما عطش الركب في ذلك المحل فيأتيهم العرب بماء يبيعونه.

مغاير شعيب(مدين) :

ثم ارتحلنا من هناك وسرنا يومنا في هبوط منحدر مع الوادي، لانفارقه إلى أن نزلنا في المكان المسمى بمغاير شعيب عليه السلام، عند العصر، وأدركنا هناك أواخر المصري — كما هو شأننا في كل دار — وهيَ أحساء كثيرة في مضيق بين جبلين فيها نخيل، وماؤها طيب جدّاً حلو خفيف نافع، وتسوقنا بها أعراب مدين بأحمال كثيرة من العنب الجيِّد الأسود، وهو في غاية الحلاوة، وجاءوا برمان كثير، واشترى الناس العنب أولاً بدرهمين، ثم صار بعد ذلك رطل ونصف بدرهم.

ووقعت بين الأعراب عند نزولنا مهارجة، فقتل واحد وارتث آخر.

وبين الموضع الذي نزلنا فيه وبين مدين مسيرة نصف يوم، وهي بلدة على ساحل البحر كثيرة الفواكه والمياه الغزيرة، وسكانها أعراب أهل بادية، وكانت قبل ذلك مدينة، وأخبرونا أن أثر البناء باق فيها إلى الآن. وعلى يسار منزلنا خارج المضيق مغاور يقال إن فيها كان شعيب يأوي بغنمه، وبإزائه بئر كبيرة

معطلة، وبجانبها بركة، ويقال : إن هناك كانت البئر التي سقى منها موسى عليه السلام غنم شعيب عليه السلام، وفي ذلك الوادي دوم طويل كأنه نخل، صنوان وغير صنوان، وعريش كثير في الوادي، وهو محل مخافة قلّما يخلص من لصوص الأعراب[1] .

عيون القصب :

ثم ارتحلنا من هناك، ونزلنا بعيون القصب، وهو ماء جار، في مضيق بين جبلين، في محل كثير القصب والدّيس، وفي أعلى الوادي نخل وأرض صالحة للحرث قلَّ ما يخلو ذلك المكان من أعراب نزول به، فيكثر الخوف، ويعظم ضررهم، سيما عند نزول الليل، فطلع أمير الركب ومعه الرماة حتى جاءوا أعلى الوادي فبقوا هناك حتى استسقى الناس كلهم، وأخذوا حاجتهم من الماء وروت الإبل، فرجعوا بعد العشاء.

وعلى شفير الوادي عند منزل الركب مسجد مبني بالحجارة المنحوتة ومنبر بإزائه.

المويلح :

ثم ارتحلنا منه، ونزلنا إلى ساحل البحر، ولم نزل نسايره إلى بندر المويلح، ونزلناه بعد العصر، وماؤه كثير، وفيه آبار كثيرة، وبساتين حسنة ونخل.

وهناك حصن كبير فيه عسكر وأمير، وتخزن فيه الميرة والفول كثيراً، وعلى بابه سوق كبير، يوجد فيها غالباً المحتاج.

وفيه مقاثي كثيرة من دلاع وبطيخ وغير ذلك.

وبه مرسى حسنة تنزل بها السفن القادمة من سويس، والقادمة من جدة، ومن القصير.

---

(١) العياشية ١ /١٦٩ ورحلة أبي مدين عبدالله بن أحمد الروداني الدرعي المتوفى ١١٥٧ وهو ينقل عن العياشي.

وكان الهواء يوم نزولنا فيه ويوم إقامتنا بحرياً بارداً، وبالجملة من يوم خروجنا من مصر إلى المويلح لم نر حراً شديداً.. وكان نزولنا بالمويلح يوم الجمعة الثالث عشر من شوال، الموفي عشرين من ينيه من الشهور العجمية.

وعلى شاطىء البحر قرب منزل الركب على مرقب قبر سيدي محمد والد الشيخ عبدالكريم الفكوني القسمطيني، وعليه بناء(١)، وقد زرناه، وأقمنا هناك يومين، أحدهما مع المصري والآخر بعد ارتحاله.

وهناك أخذ الناس فولهم الذي اكتروا على حمله عرب بني عطيّة من مصر، ولم يضع لأحد شيء منه، فيخزن الناس هناك ما يحتاجونه في الإياب إلى العقبة، وأكروا على الباقي إلى ينبع، والذين يكرون من هنالك ــ في الغالب ــ عرب بليّ، وبلادهم من هناك إلى قرب الينبع حيث بلاد جهينة.

وممن منّ الله علينا بلقائه هناك رجل من الصالحين من أهل الجذب اسمه الشيخ محمد العبدلي، وأصله من ريف مصر، دلّنا عليه صاحبنا الشيخ أحمد المجذوب المصري، وأخبرنا أن لهذا الشيخ في هذا المكان أزيد من عشرين سنة فذهب معنا إلى زيارته فوجدناه على سور الحصن، وهو يجمع تراباً بكلتا يديه، فكلمناه، ودعا لنا دعاء كثيراً وقال لنا : حركوا معي هذا التراب، فمن حرّك حصلت له بركة، فامتثلنا أمره. وهو رجل قد طعن في السن ليس عليه إلاّ قميص وهو محلوق الرأس، كلما اجتمع عليه ناس فرّ منهم، وربما هرول في هروبه من الناس، ثم عاودت إليه آخر اليوم، وزرته أيضاً. وأقمنا بالمويلح يومين.

وقال في العودة ــ يذكر المويلح ــ : وأتينا المويلح ضحى بعدما اشتد الحرّ، ولما قربنا من البندر تقدمت أمام الإبل، وملت إلى حائط من نخل لأستريح، فوجدت حارسه رجلاً من المغاربة من زناتة أفريقية، تعوّق هنا فأدخلني الحائط وآواني إلى عريش له، حوله جابية ماء بارد، وقدّم لي من رطب الحائط، فأكلت وقيّلت هناك عنده حتى ذهبت سورة الحرّ(٢).

وبات الركب في المويلح في أرغد عيش.

---

(١) البناء على القبور محرم شرعاً، لا يفعله إلا الجهال بأحكام الشرع الشريف، وعصر المؤلف عصر جمود فكريّ، في جميع الأقطار الإسلامية، حين كانت الدولة التركية تشيّد الأبنية على القبور، لجهلها بتعاليم الإسلام، والحمد لله الذي طهر البلاد المقدسة من البدع والخرافات.

(٢) «العياشية» : ٢ /٣٠٠.

دار أم السلطان :

ثم ارتحلنا من المويلح يوم الإثنين(١٦ شوال /٢٣ يونيه) ومررنا بالموضع المسمى بدار أم السلطان ولم ننزل فيه. وتجاوزناه وسلكنا في المضيق المسمى بشقّ العجوز ونزلنا على شاطىء البحر قريباً من منزل الركب المصري، ووجدنا هناك شرذمة من الأعراب يبيعون العلف، وعن يسار منزلنا جبال سلمى وكفافة.

شق العجوز :

وقال في وصف هذا المكان في عودته :

وفي الغد مررنا بكفافة، فلما قرب الناس من شق العجوز ودخل معظم الركب فيه ولم يبق إلاّ القليل، أغار اللصوص على أواخر الركب، قرب بئر الدويدر، فلم يجدوا هناك جماعة إلاّ طائفة قليلة من أعراب برقة، ورجلان من أصحابنا ذهبوا لسقي ماء من البئر، فقاتلوهم أشد قتال، وقتل من اللصوص رجلان، ومع ذلك أخذوا قريباً من الثلاثين بأحمالها، ودخلوا في مضيق تلك الشعاب وتعذّر الغوث[1] .

بيد أنه ليس في الركب في هذه السنة من يدفع، بل ولا من ينفع، وكان شيخ الركب سيدي أبو زيان، حفيد سيدي أحمد بن يوسف الملياني، وهو رجل لين، وليست له عصبة قوية، إنما كان يتأخر في بعض الأحيان، هو وفارس آخر من أصحابه، فكان من قدر الله أن ركب في ذلك اليوم على جمل، لإراحة فرسه، وتقدم وما رأى الناس قط لصّاً في ليل ولا نهار، من مكة إلى هذا المحل، وكأنهم أمنوا، وقلّ حذرهم، وساروا حتى جاوزوا(دار أم السلطان) وباتوا.

(١) «العياشية» : ٢ /٢٩٩.

قبر الكفافي ـ الأزلم :

ثم ارتحلنا من هناك يوم العنصرة، ومررنا صباحاً بقبر سيدي مرزوق الكفافي، على ساحل البحر، عليه أعواد قد علّم بها عليه، والناس يتبركون به، ونزلنا ذلك اليوم ببندر الأزلام[1] عند العصر، وبه ثلاثة آبار كبيرة محكمة البناء، وماؤها غزير، إلاّ أنه زعاق، يصلح للإبل ولضرورة الناس من غسل وما أشبهه، ولا يسيغه إلاّ المضطرون، وعلى يسار البندر بعيداً عن الآبار حساء محفور في الأرض، ليس بمطويّ، وماؤه أحسن من ماء الآبار، إلاّ أنه قليل، ولا يعرفه الكثير من الناس، وهذا البندر قليل الجدوى لقبح مائه وقربه من المويلح ومن الوجه، وهما أتمّ منه منفعة، فليس به كبير فائدة، وقد انهدّ ما في داخله من البيوت وتثلّم بعض صوره[2] ، والخلاء أقرب إليه من العمارة :

إذا لم يكن فيكنّ ظلّ ولا جنى
فأبعدكنّ الله من شجرات

اصطبل عنتر :

ثم ارتحلنا من الأزلام[1] ، ومررنا بين جبلين، وسرنا في مضايق وعقاب صغار، إلى أن وصلنا المكان المسمى اصطبل عنتر عند العرب، وفيه ثلاثة آبار محكمة البناء، بحجر منحوت، وماؤها حلو إلى الغاية إلاّ أنه ضنين، أنزحته الدّلاء بسرعة، وبات الناس ليلتهم يتبرضونه تبرّضاً، ولأياً بلأي ماكفاهم للشرب، ولم ترد منه الإبل[3] .

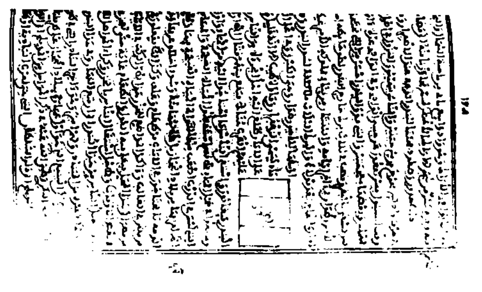
(١) كذا والصواب : (الأزلم).
(٢) يقصد «سورة» بالسين.
(٣) «العياشية» : ١ /١٧٣.

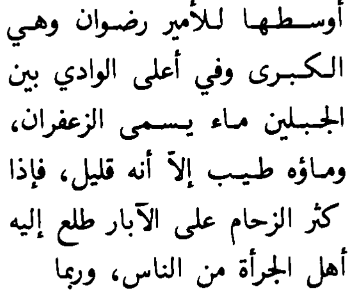
وادي الأراك ـ الوجه :

ثم ارتحلنا منه، ومررنا بوادي الأراك، وهو واد واسع يأتي من ناحية الشمال، والبحر من يمينه قريباً منه وفيه كثير من شجر الأراك الأخضر الناعم، ثم تجاوزنا منه إلى مضايق بين فدافد وأجبل ذات حدورا[1] وصعود.

فجئنا لبندر الوجه عند الاصفرار، وفيه حصن حصين، في جوف واد كبير، يخرج من بين جبلين، والناس يتهيبون النزول في أصل الوادي إذا كان وقت السيول فيرتفعون عن جنبي الوادي.

وفي الوادي عدة آبار بعضها حسن ـ بمهملتين ـ وبعضها بمعجمتين[2]، والتي فوق البندر أحسن من التي تحته، وداخل البندر بئر تسقى بالبقر، وتصب في ثلاث برك خارج البندر، لصق حائطه، إحداهما من بناء الأمير رضوان في آخر أيامه، والشنتان من بناء مملوكه الأمير غيطاس، عام تولى إمارة الحاج بعد مولاه، والبرك الثلاث ملاصقه لسور البندر وصورتها :





أوسطها للأمير رضوان وهي الكبرى وفي أعلى الوادي بين الجبلين ماء يسمى الزعفران، وماؤه طيب إلاّ أنه قليل، فإذا كثر الزحام على الآبار طلع إليه أهل الجرأة من الناس، وربما هجمت عليهم العرب فيقع منهم قتال، إلا أن الموضع قريب من البندر فيغاثون.

واستقى الناس ما احتاجوا إليه من الماء وأوردوا إبلهم، وبالغوا في حمل الماء، لأنهم استقبلوا المياه القبيحة، والمسافة العريضة، التي ليس في الدرب أصعب منها، لتوالي المياه القبيحة فيها، وبعد العمارة وشدة الحرّ، لقربها من بلاد الحجاز، بل غالبها منه، وسوء أخلاق عربها وخزن الناس في بندر الوجه ما

(١) في الأصل :«حذور» وفي الناصرية : حضور.

(٢) يقصد : خشن ـ أى غير عذبة الماء.

يحتاجون في الإياب من طعام وعلف، وكذلك يفعلون في كلّ بندر مرّوا به من مصر في الغالب.

وآكَدُ المواضع للخزن هذا، لأن الركب في الإياب قد يسبق الملاقي من مصر إلى هذا المحل، فيغلى فيه الفول والطعام غاية حتى تعجز عنه الأثمان في بعض الأوقات، ولأجل اشتغال الناس بالخزن وكراء المواصل(؟) لطرح الأمتعة تأخر رحيل الناس من هذا البندر إلى أن متع النهار.

وفي هذا البندر طائفة من العسكر كغيره من البنادر، ولهم أمير، وهو آخر البنادر التي في طريق الدرب وليس بعده عمارة إلى الينبع الذي هو أول عمارة ببلاد الحجاز على طريقنا.

أكرة :

ثم ارتحلنا من الوجه، بعدما وقع اختلاف بين مشايخ الركب في الرحيل والقيلولة، فتبع الآخر منهم الأول، وارتحل الناس جميعاً، ولما تجاوزنا البندر وغاب عن أعيننا ظهر بعض الحرامية لآخر الركب ورموهم بمكحلة[1] ، فتصايح الناس فدفع الله كيدهم، ولم نر أحداً منهم قبل ذلك، ثم بتنا تلك الليلة دون الأكرة، وفي الغد مررنا بالأكرة ظهراً، وهو واد كبير، تأتيه السيول من بلاد بعيدة، يذكر أن سيل المدينة المشرفة يصل إليه، وماؤه قبيح جداً إلاّ أن يكون عقب سيل فيحسن، وبه آبار كثيرة، وأشجار ملتفَّة، والآبار المحفورة في ذلك اليوم أجود من القديمة، فأخذ الناس من مائه ما اضطروا إليه، وسقوا إبلهم وتجاوزوه بنحو فرسخين فباتوا.

بين الدركين :

وبالغد مررنا بالموضع المسمى بين الدركين ظهراً، وهو منزل الحاج المصري، وإنما سمي بذلك لأنه بين درك أعراب مصر وأعراب الحجاز، فإن مابعده من عمل الحجاز وفي درك أمرائه.

---

(١) المكحلة : بندقية تحشى بالبارود تسمى في نجد(فتيل).

العقبة السوداء :

ولم نبت ذلك اليوم إلاّ بقرب العقبة السوداء، وتلك المرحلة والتي قبلها يشتد فيها الحرّ، وهي أرض سهلة مطمئنة ليس فيها جبال إلاّ ما يتراءى عن شمال المارّ بها، والبحر يتراءى عن يمينه، وفيها غياض من شجر الطلح وهي من أنواع الكلأ الذي ترعاه الإبل كثيراً، إلاّ أن الناس لايتركون الإبل للرعي، فإن المحلّ مخوف تغير فيه أعراب بليّ وجهينة وغيرهما.

الحوراء :

ثم ارتحلنا ونزلنا من العقبة السوداء عند طلوع الشمس، وهي عقبة صغيرة في أرض سوداء ذات أحجار وأشجار، و يقال إنها أول أرض الحجاز ولا يبعد ذلك، فإن من هنالك تخالف الأرض ما قبلها، وتباين الجبال ما سواها، و يشتدّ شبهها بجبال الحجاز السود، و يتقوّى الحرّ، وتسترمل الأرض، فسرنا محاذين للبحر إلى أن نزلنا الحوراء ضحى، وقال الناس فيها، وتفرقوا بين تلك الأشجار على ساحل البحر، ومياهها حفائر على ساحل البحر، يحيط بها ديس كثير، وفيه ملوحة قليلة، والقريب العهد بالحفر أجود من غيره، وكلما طال في القرب خبث، والإكثار منه يورث إسهالاً مفرطاً كماء الأكرة والأزلم[1] ، وعجرود، فلما وردت الإبل وأخذ الناس حاجتهم من الماء ارتحلوا ظهراً.

وادي العقيق :

فلما أخذ الناس حاجتهم من الماء ـــ ماء الحوراء ـــ ارتحلوا ظهراً وطلعنا مع واديها الكثير الأشجار، من أراك وغيره، إلى أن ارتفعنا فعدلنا يميناً إلى الوادي المسمى على ألسنة الحجاج وادي العقيق، ولا مناسبة بين الاسم والمسمى، بل تسميته بوادي العقوق أنسب، لشدة جرأة أعرابه على السرقة، فهم من أجرأ الناس على ذلك.

(١) كذا كتبها هنا وتقدم(الأزلام خطأ).

ومن أمثال الحاج : لارجال إلاّ رجال الحوراء، ولا جمال إلاّ جمال الدوراء، يعنون بالدوراء الرجعة، يعني لايعدّ صابراً من الجمال إلاّ من صبر في حال الرجوع من الحجاز إذ هو آخر السفر، ومحل قلة العلف. ولم نبت تلك الليلة إلى أن توسَّطنا الوادي.

النبـــط :

ثم ارتحلنا أول يوم من ينـاير ــ من وادي العقيق ــ وجئنا إلى وادي النّبط[1] وقت الظهر، وفيه آبار أربعة محكمة البناء بالحجر المنحوت، وماؤها عذب حلو غزير في الغالب، وغزارة مياه أودية الدرب إنما تكون بحسب كثرة المطر وقلته، فإذا حمل الوادي ولو مرّة في السنة غزر الماء سائر السنة. وقد نزل الناس بهذا الوادي إلى أن سقوا واستقوا فارتحلوا بعد العصر، وتراءت لهم حرامية فوق الجبل وتصايح الناس واجتمعوا ففروا أمامهم. ثم سرنا هنيهة ونزلنا قريباً منه بنحو فرسخ.

وادي النار :

ثم ارتحلنا غداً، وسلكنا في وادي النار، وهبّت علينا ريح غربية كانت أول النهار باردة، ووسطه وآخره سموماً، لقى الناس منها شدّة، ولم يروا أشدّ منه(؟) قبله ولا يرونه ــ إن شاء الله ــ بعده، وألجأ الحرّ الناس إلى القيلولة قهراً من غير اتفاق منهم على ذلك، فكل من وجد صخرة أو شجرة التجأ إليها، وأناخوا الإبل، ولم يحطوا عنها الأحمال فكانت القيلولة أشدّ عليهم من السير، فلما استراحوا قليلاً وأبى الحرّ أن يخفّ ارتحل الناس، وساروا في سموم وحرّ شديد، لايزيد مع العشيّ إلاّ شدّة.

الخضيرة :

وجئنا إلى الخضيرة محل نزول المصري عند غروب الشمس، وتجاوزناه، وسرنا إلى العشاء.

---

(١) يعرف باسم نبط بدون تعريف.

الوعرات :

وقطعنا ثلاثاً من الوعرات السبع، المسماة على ألسنة الحجاج بسبع وعرات، ثم بتنا والحرّ لا يزيد إلاّ شدّة فأشفق الناس من ذلك لقلة الماء.

وهذا الوادي قد طابق الاسم فيه المسمى، قلّما تخلو سنة من شدّة تقع للحجاج فيه، بحرّ أو عطش أو محاربين، وهو واد كبير ضيّق بين جبلين لاسعة فيه، من النبط إلى الخضيرة، فإذا متع النهار واشتد الحرّ حجبت الجبال عنه الهواء البحري، فينعكس غربياً أو شرقياً، صاعداً من الوادي، أو منهبطاً، فيصير سموماً محرقاً ولا ماء هناك من النبط إلى الينبوع، فربما أتلف الناس فيه عطش مهلك وربما أحدث ذلك سُمّيّة في الأبدان بقبح الهواء مع حرارته، فيموت المئون، بل الألف[1] من الخلق في أسرع مدّة، ويأخذ الرجل الماء فلا يضعه من يده حتى يموت، ووقوع ذلك كثير إنما هو في الإياب، وفي الركب المصري أكثر.

وقد حضرنا لطف الله فلم نر هذه السنة بأساً مع شدّة الحرّ وإفراطه فلم يمت أحد.

الينبوع (ينبع) :

ثم ارتحلنا من هناك قبيل الفجر وقطعنا ما بقي من الوعرات، فنظر الله إلى وفده نظر رحمة، فانقلب الهواء بحريّاً، وخرجنا إلى متسع من الأرض جالت في أرجائه أرواح معتدلة، فانطفت جمرة الحرّ بعض انطفاء. ولولا ذلك لهلك الناس، فقد قلّ ماؤهم، وتأخر بعض الإبل من شدّة العطش، فخرج عليهم اللصوص بعدما قاربنا الينبوع[2] ، فتصايح الناس، ورجعوا إليهم، فلما أعجلوهم نحروا الجمل، وفرّوا إلى الجبل، وقصدهم في ذلك أن يبقى لهم لحم الإبل لعلمهم أن الناس لا يأخذونه.

وجئنا إلى بلد الينبوع ظهراً، واستبشر الناس بقدومها لأنها أول بلاد الحجاز العامرة، وفيها قرى كثيرة، ومزارع ونخيل وعيون جارية، وفيها عامل لأمير مكة السلطان زيد.

---

(١) كذا يكتب المتقدمون كلمة(الالاف).

(٢) كذا في كتب كثير من المتأخرين والصواب(ينبع).

وقد أخبر بعض من طلع مع وادي الينبوع أن عمرانه متصل نحو ثلاثة أيام، والقرية التي بها الركب هي آخر القرى التي من ناحية البحر، وليس بعدها إلاّ ينبوع البحر الذي هو المرسى، وغالب أهل القرى يأتون إلى هذه القرية التي ينزل بها الحاج للتسوق، وتعمر هناك سوق كبيرة يوجد فيها غالب المحتاج، وتجلب إليها البضائع والسلع ذوات الأثمان، ويجلب إليها من الثمار والفواكه والحبوب والفول شيء كثير.

وكان نزولنا بها في أول وقت جذاذ النخل، وأكلنا بها رطباً جيداً، وبتنا بها ليلتين ريثما أصلح الناس من بعض شأنهم، وأخذوا من العرب أكريتهم التي بعثوها من المويلح، وكان الكراء منه إلى هنا بسبعة قروش ونصف، ومن مصر إلى المويلح سبعة قروش وثلث.

وأدركنا المصري هناك، وبتنا معه ليلة ثم ارتحل، وبتنا وراءه ليلة أخرى. وهناك وجدنا أخبار مكة والمدينة وسائر بلاد الحجاز وتعرَّفنا خبر رخصها وغلائها وخصبها ويبسها.

ومن هناك تجلب الميرة إلى المدينة، فإن السفن الجالبة للطعام من مصر ما كان منها إلى المدينة يرسى بينبع(١) البحر وما كان منها لمكة يتجاوز إلى جدة، فإذا وصل الطعام إلى الينبوع حمل منه إلى المدينة، تحمله أعراب تلك الناحية من بني سالم وجهينة، ويتدرَّكون بالطريق من هناك إلى المدينة.

وقد خزن الناس هنا أيضاً من الفول والزاد ما يحتاجونه في الإياب.

جبل رضوى :

وأكبر جبال تلك البلاد جبل رضوى وهو المشرف على بلاد الينبوع، وليس هو الجبل الصغير الذي بجانب الينبوع، بل هو الجبل الكبير المشرف عليه.

وإلى هذا البلد كانت غزوة العشيرة من غزواته صلى الله عليه وسلم،

---

(١) كذا وتقدم(ينبوع) وكذا فيا نقله أبو مدين عنه.

ومسجد القرية الآن هو مسجد العشيرة المعدود في المساجد التي صلّى فيها النبي صلى الله عليه وسلم، قال السيد السمهودي مانصّه : ومسجد العشيرة معروف ببطن الينبوع، وهو مسجد القرية التي ينزلها الحاج المصري، ولابن زبالة أن النبي صلى الله عليه وسلم صلّى في مسجد ينبوع(؟) بعين بولا.

قلت : وعنده أيضاً عين جارية، لكنها لا تعرف بهذا الاسم.

وقد دخلنا هذا المسجد وتوضأنا من هذه العين، وكان نزولنا تحت القرية، وجعلنا خباءنا تحت المزارة التي على التلّ المرتفع. وقد تقدم أنها لأبي الحسن النفاتي[1] .

وفي ينبوع أيضاً قبر الحسن المثلث، فوق القرية ولم نصل إليه لبعده.... وفي هذا البلد موطن طائفة من الأشراف، ومنهم شرفاء بلدنا القاطنين بسجلماسة.

السقائف(دار الوقدة) :

ثم ارتحلنا من ينبوع وسرنا يومنا في رمال ليست بالقوية، وأشجار قليلة إلى أن نزلنا بموضع يسمى السقائف(؟) و يقال له دار الوقدة، يقدون فيها الشمع الكبير، يستصحبه الناس معهم من مصر لذلك و يبيعونه في الركب، ويجعلونه على أقتاب الجمال بالليل، فترى الركب كله كأنه من أعظم المساجد المسرجة مصابيحها في أحد المواسم، وشاع عندهم أن الصحابة في غزوة بدر أوقدوا هنا نيراناً كثيرة فنحن نتشبه بهم. وتلك غفلة منهم وخطأ من وجهين : أحدهما أن وقوع الأمر بإيقاد النيران إنما كان في غزوة الفتح بمرّ الظهران كما هو معروف في كتب السير، وأما بدر فلم يقل فيها أحد ذلك. وثانيها : لو سلّم أن ذلك وقع فيها فقد كان لإرهاب العدو وإظهار قوة المسلمين، وكثرة عددهم، فحيث لاعدوّ فلا معنى له، ولاشك أن الفرح بنصر الله أولياءه على أعدائه والاستبشار

---

(١) أبو الحسن النفاتي : أخو محمد النفاتي التونسي كان قاضي القدس عندما زارها العياشي(١ /٩٠) وذكر عنه خرافات نقلها عن أخيه وقال :(وقد أخبرني عن أخيه بأمور من جنس هذا في سفرته تلك، وفيها توفي بقرية الينبع التي ينزلها الحاج، وقبره إلى الآن ظاهر، وعليه بناء ضعيف على تل مشرف، بجري منزل الركب المغربي بالينبع). (ج١ ص٢٦١) وكان أبو الحسن النفاتي أمير الركب(١ /٦١)، وحج معه أخوه القاضي محمد وهو صغير(١ /٦١).

بالأماكن التي أعزَّ الله فيها الإسلام أمر مطلوب مستحسن، مالم يؤدِّ ذلك إلى محظور، مثل اعتقاد أن الوقود سنة متبعة، بل ربما ظن بعضهم أنها من أفعال الحج، فلتعظم بغير ذلك من فرح وسرور وصدقة وعبادة وإعلان بشكر. وقد جاءني كثير ممن لا شمع عنده يستفتون و يقولون : لاشمع عندنا فهل يلزمنا شراؤه ممن هو عنده؟ ظانّين أن ذلك من مناسك حجهم وشعائره، وكم مثلها من بدعة محدثة يرى الناس أنها من أعظم القربات، نسأل الله أن يميتنا على سنّة النبي المستقيمة لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا.

بـــــدر :

ثم ارتحلنا من دار الوقدة ومررنا بعد طلوع الشمس تحت حبل الرمل الكبير المشرف على بدر، بينه و بين الجبل الآخر الأيمن.

وكنت ممن تجشم الطلوع إلى أعلى الجبل رجاء سماع مايؤثر أنه يسمع هناك من صوت الطبل، ولم أسمع شيئا، وقد زعم كثير من الحجاج أنهم سمعوه.

لطيفة :

وقد ذكر الإمام ابن مرزوق في شرحه على«البردة» مانصه : ومن الآيات ببدر الباقية ماكنت أسمعه من غير واحد من الحجاج أنهم إذا اجتازوا بذلك الموضع يسمعون كهيئة طبل ملوك الوقت، و يرون أن ذلك لنصر أهل الإيمان قال: وربما أنكرت ذلك، وربما تأولته بأن الموضع لعله صلب فيستجيب(؟) فيه حوافر الدواب. وكان يقال لي : إنه دعس رمل غير صلب، وغالب ما يسير هناك الإبل، وأخفافها لا تصوت في الأرض الصلبة، فكيف بالرمال. قال : ثم لـمّا منّ الله تعالى بالوصول إلى ذلك الموضع المشرف نزلت عن الراحلة أمشي، و بيدي عود طو يل من شجر السعدان[1] ، المسمى بأم غيلان، وقد نسيت ذلك الخبر الذي كنت أسمع، فما راعني وأنا أسير في الهاجرة إلاّ واحد من عبيد الأعراب الجمالين يقول : تسمعون الطبل! فأخذتني — لـمّا سمعت كلامه — قشعر يرة بيّنة، وتذكرت ما كنت أخبرت به، وكان في الجو بعض ر يح

---

(١) السعدان في نجد عشب ذو شوك وليس شجراً.

فسمعت صوت الطبل وأنا داهش(؟) مماّ أصابني من الفرح أو الهيبة أو ما الله أعلم به، فشككت وقلت : لعل الريح سكنت في هذا الذي في يدي وحدث مثل الصوت، وأنا حريص على طلب التحقيق بهذه الآية العظيمة، فألقيت العود من يدي وجلست إلى الأرض، أو وثبت قائماً، أو فعلت جميع ذلك، فسمعت صوت الطبل سماعاً محققاً، أو صوتاً لا أشك أنه صوت طبل وذلك من ناحية[1] (....) ونحن سائرون إلى مكة المشرفة، ثم نزلنا ببدر فظللت أسمع ذلك الصوت، يومي أجمع، المرّة بعد المرّة، قال : ولقد أخبرت أن ذلك الصوت لايسمعه جميع الناس.

وقال الإمام المرجاني رحمه الله تعالى : وضربت(طبلخانة) النصر ببدر فهي تضرب إلى يوم القيامة، نقله عنه السيد السمهودي في تاريخه الكبير والصغير[2] .

قلت : وقد كثر كلام الناس في هذه المسألة، وإذا ذكر من يوثق به كابن مرزوق وغيره أنهم سمعوه فالصحيح أن بعض الناس يسمعه دون بعض.

وقد مررت ببدر سبع مرات وأنا في كلها ألقي البال لذلك فلم أسمع شيئاً أتحققه، وفي هذه المرة سمعنا بعد ما قربنا من البندر صوت طبل محقق، فإذا هو طبل بعض أمراء الركب كان متأخراً وراءنا، وتحققنا ذلك بجلوسنا حتى مرّ بنا، وكثير من الناس ممن لم يتحقق ذلك زعم أنها(الطبلخانة) المذكورة. وقد سألت عن هذه المسألة محقق زمانه شيخنا سيدي أبا بكر السجتاني(ض) فقال لي : كنت حريصاً على تحقيق ذلك، وقد مررت ببدر نحواً من سبع وعشرين مرة فلم أسمع شيئاً أتحققه، والعلم عند الله.

قلت : وهذه المسألة مثل ما شاع على ألسنة الحجاج أنهم يرون الأنوار مشرقة من يوم قربهم من ينبوع. ويقولون : إن وادي النار اسمه وادي النور لأجل رؤيتها منه، فحرف الناس التسمية. وقد ألقيت البال لذلك فكلما قالوا : إنهم رأوا الأنوار نظرنا فإذا هو بروق تخفق في بلاد بعيدة، وتحققنا ذلك بظهوره مرّات كثيرة في غير ناحية المدينة، وتارة في ناحيتها، ويتصل خفقانه حتى يقرب إلينا

(١) بياض في الأصل.في الحاشية :(بياض بالأصل كذا وكتب عليه البعض لعله من ناحية الجبل الذي هو بالعدوة الدنيا والله أعلم) وفي«الناصرية» من ناحية اليمن ونحن سائرون الخ...

(٢) يقصد«وفاء الوفاء» و«خلاصة الوفاء».

فنتحقق أنه بريق، أو تظهر أمارات أخر تحقق ذلك، مثل رؤية غيم متراكم وأصوات رعد. وأرض الحجاز معروفة بكثرة البرق، وكثير من الحجاج يصمّمون على أنها أنوار ولو ظهرت الأمارات ولو كان من غير ناحية المدينة [1]. وقد سألت أيضاً شيخنا أبا بكر السجتاني ــ رضي الله عنه ــ : عن هذا فقال لي كنت أتأمل ذلك كثيراً فلم أر شيئاً مما يزعمه الحجاج إلاّ البرق، نعم قال لنا(ض) : الذي لايمترى فيه أنه نور النبي صلى الله عليه وسلم حقيقة ــ وإن كانت جميع الأنوار من نوره ــ ما عايناه مراراً ونحن مجاورون بالمدينة المشرفة، في الحرم الشريف، فإنا نجلس أحياناً نهاراً حتى يستفيض من ناحية الحجرة ما يخالف ضوء النهار، فيغشى الحرم كله فيراه الناس. قلت : ولعل هذا الذي ذكر شيخنا رضي الله عنه خاص أيضاً به وبأمثاله ممن تنوّرت بصائرهم فاستنارت بها أبصارهم، فيشاهدون الأنوار المعنوية محسوسة، وإلاّ فكثير من الناس لايشاهدون ذلك(والله يختصّ برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم).

وفي آخر المضيق الذي بين الرمل والجبل عريش إلى الآن، يزعم الناس أنه موضع العريش الذي بني للنبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر، وأن ذلك موضع الواقعة(؟) وليس به.

ونزلنا بدراً ضحى، بعدما حمى النهار، وهي قرية حسنة، ذات نخيل وماء عذب، فيه بركة كبيرة تكفي الأركاب كلها ومادّتها من عين هناك، وعلى ذلك البلد أنوار تلوح، ورياح النصر تغدو وتروح، وينشرح فيه الصدر والقلب، ويتجلى فيه بصفة الجمال لكل مسلم الربّ، سبحانه وتعالى، ومعالم النبوة لاتخفى، ومواطن أقدام الرسول(صلى الله عليه وسلم) وأصحابه لا تعفى.

وقد ظهرت على أهل هذا البلد بركة الرسول معلنين بذلك، فأسعارها ــ في الغالب ــ أرخص من غيرها مع صغرها، وانقطاعها عن البلاد، وأهلها محفوظون، آمنون، مطمئنون، مع سوء أخلاق عرب صبح المجاورين لهم.

---

(١) في الهامش :(هب أن كلاً من صوت الطبل والنور تحقق، ماذا كنا نصنع بذلك؟ ألم يغننا الله بكتابه وسنة رسوله)؟ بالقلم والكتاب مطبوع.

وكان نزولنا خارج البلد بينه وبين الجبل، بالقرب من مقابر الشهداء، وقد زرناهم في محلهم، وعليهم جدار قصير محيط بقبورهم. وبالقرب منهم قبور السادة الأشراف الرّدينيّة من أهل اليمن، نزل أسلافهم بهذا البلد، ولهم أتباع في طريق القوم ومجلس ذكر، وكبيرهم اليوم السيد الغيث وقد زرته ودعا لي.

مسجد الغمامة :

وزرنا المسجد المسمى بمسجد الغمامة، وهو موضع العريش يوم الواقعة ببدر، كما نصّ عليه غير واحد.

وانشرحت صدورنا بالمشي في أزقّة القرية، وبين بساتينها المشرقة النضرة كأنما نخلها من شدة خضرته ونعومته وإشراق عراجين الثمار المصفرّة والمحمرّة بينها أغصان شجرة طوبى، ولم نأل جهداً ما سرنا في أرجائها وجلنا في أقطارها عسى أن تطأ أقدامنا في موطيء قدم أحد أصحاب الرسول، ولو تحققنا موضع قدم واحد منهم لكان لثمه بالوجه غاية المنى والسول.

وقد بتنا ببدر تلك الليلة، وكانت العادة أن الركب الشاميّ ينزل علينا هناك بالليل فلم ينزل وتأخر.

وقد خزن الناس ببدر أيضاً ما يحتاج إليه من طعام وعلف مما يحتاج إليه من بدر إلى المدينة المشرفة وإلى الينبوع في الإياب، وكان خزيننا نحن عند رجل اسمه الشيخ حسن بن عليان، والغالب عليه أنه من أهل الخير.

البزواء :

ثم ارتحلنا من بدر، وهبّت علينا ريح باردة استمرت ذلك اليوم وغداً، وتجاوزنا السبيل الأول الذي بالبزوة [١] ظهراً.

سبيل محسن :

ثم مررنا على سبيل محسن عشاء، وبتنا.

---

(١) هي البزواء.

مســتورة :

وفي الغد مررنا ضحى بقرية تسمى مستيرة[1] ، وفيها بئر كبيرة مطوية بالحجر المنحوت، إلاّ أن الرمل قد غلب عليها، وحولها عمارة قليلة، وبها قبر يزار، عليه بناء اسم صاحبه الشيخ يحيى، قالوا إنه شريف من أهل اليمن، وفي الروضة قيّم يأخذ صدقات ذلك الشيخ.

رابــغ :

وسرنا يومنا ، ونزلنا برابغ بعد المغرب وبتنا، ووجدنا به بركة كبيرة قد بنيت هناك مملوءة ماء، أعانت الناس في سقي الإبل، وفيما يحتاجون إليه في إحرامهم من غسل ثياب واغتسال.

وهي قرية فيها نخيل وآبار كثيرة، في واد يأتي إليه السيل من بعيد، وتزرع فيه مقاثي كثيرة، ودخن وذرة وهو من أخصب أودية الحجاز.

ثم اشتغل الناس بغسل الثياب والاغتسال للإحرام، وشراء النعال، توجد هناك معدّة للمحرمين إلاّ أنها غالية، ولم يتيّسر الرحيل إلاّ بعد الزوال.

الرمــال :

فرحلنا وخرجنا عن القرية، وبرزنا إلى البرية، وصلّينا الظهر جماعة، ثم ركعتي الإحرام، ثم أحرمنا ملبّين بالحج مفرداً، محافظين على استحضار النية، والمتابعة على التلبية...

وتابعنا السير... وجاوزنا الرمال التي يتيه فيها الركب في بعض الأحيان بين العشاءين فلما خرجنا إلى الأرض الصلبة أنخنا وبتنا إلى الصباح[2] .

---

(١) في الهامش :(خ : مسيترة) وهي مستورة الآن.

(٢) «العياشية» ١ /١٨٥.

هرشى :

ثم ارتحلنا ــ من بعد الرمال ــ وأخذنا بطن هرشى [1] التي يقول فيها الشاعر :

خذوا بطن هرشى أو قفاها فإنما
كلا جانبي هرشى لهنّ طريق

قديد :

ومررنا بقديد، وهي قرية غالب أبنيتها حيشان، وفيها فول وفواكه تباع، ولا ماء بها إلاّ ما يستقى من بعيد.

المشلل :

وسألنا عن موضع مناة الذي بالمشلل حذو قديد هل يعرفه أحد؟ فلم نجد أحداً يعرفه، والحمد لله الذي هدم رسوم الطواغيت حتى لايبقى أحد يعرف حتى أمكنتها.

وقد أدركتنا القيلولة بجانب قديد فقلنا هناك إلى أن زالت الشمس، فارتحلنا ومررنا بأرض ذات مزارع كثيرة ومقاثي، إلاّ أن زراعتها إنما هي إذا جاء السيل وأكثر المقاثي في بلاد الحجاز إنما تزرع على ماء المطر في الأماكن التي يستنفع بها الماء. وقد أخبرنا أن كثيراً منها ينبت في البريّة من غير استنبات، وبها دلاّع جيد رخيص، ويسمونه بلغتهم حبحب، ولايكاد ينقطع شتاء ولاصيفاً، إلاّ في السنة الجدبة.

عقبة السكر :

ثم صلينا العصر في الموضع المسمى بعقبة السكر، وأكثر الناس خصوصاً المصارية يجلبون السكر من مصر بالقصد ليشربوه هناك، ويأثرون في ذلك أثراً لا أصل له، يزعمون أن رمل ذلك المحل قد انقلب للصحابة سكّراً فشربوه، وهي

(١) هرشى قبل رابغ، وليست هنا وهذا خطأ وقع فيه كثير من الرحالين.

عقبة في جبل صغير، فيها رمل يتعب الإبل وقد سوّي البناء في جانبها، والتقطت أحجارها، وبني مسجد صغير بأحد جانبيها، وبينها وبين خليص نحو من ثلاثة أميال.

خليص :

فبلغنا إلى خليص عند المغرب، ونزلنا به، وفيه عين ماء تجري، وأبنية وقهاوى، وسوق، وقد سيق الماء في قنوات محكمات من العين، يفجر عنها في مواضع للسقي والوضوء، إلى أن خرج الماء إلى بركة عظيمة تحت القرية، لم أر أحلى منها ولا أعظم، يغرق فيها من لايحسن العوم، ويخرج الماء من البركة إلى مزارع قريبة من البلد.

وبات الناس بجانب هذه البركة في أرغد عيش بسبب الماء الحلو الغزير، وسقوا واستقوا وتوضأوا بلا كلفة في ذلك ولا مشقة.

ثنية عسفان :

ثم ارتحلنا ــ من خليص ــ غداً بعد الفجر ومررنا في غيضة كبيرة ذات أشجار ملتفّة[1] من أثل وغيره، وفي خلالها فدادين(؟) يزرع فيها المقاثي والدخن وغير ذلك. وسرنا حتى مررنا بالثنيّة التي يهبط منها إلى عسفان، والطريق فيها مبنيّة ملتقطة أحجارها كعقبة السكّر إلاّ أن هذه أطول منها وأسهل، وبأحد جانبيها مسجد.

عسفان :

فلما خرجنا من العقبة وصلنا إلى قرية عسفان قريباً من الظهر وفيها سوق وآبار متعددة، من جملتها البئر التي يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم تفل فيها، وماؤها حلو غاية، فشربنا منه تبركاً بآثاره صلى الله عليه وسلم ولم ننزل بقرية عسفان، بل صلينا الظهر في مسجدها.

---

(١) انظر عنها «مغازي الواقدي» في صفة طريق الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا المكان هو الكديد.

برقــة :

وسرنـا، ومررنا بالأرض المسماة برقة، وهي أرض طيبة، فيها مزارع ومقاثي، وصلينا بها العصر، ثم مررنا بالمسيل الذي بآخرها وصلينا بها المغرب.

وادي العميان :

وسرنـا إلـى أن ذهـب هـز يـع مـن الليـل، ونـزلـنـا قبل الوصول إلى وادي العميان، وسمي بذلك لكون الفقراء يتعرضون فيه للركبان طلباً للصدقة.

مرّ الظهــران :

ثم ارتحـلـنـا مـنـه صـبـحـاً وجـئنا إلى مرّ الظهران ضحى، وهو المسمى بوادي الـشـر يـف، وهـو واد كبير، فيه قرى متعددة، ذات نخيل و بساتين وعيون تجري، أعـظـمـهـا الـقـر ية التي ينزل بها الحاج، وفيها سوق وعين كبيرة، و بساتين مونقة، وجدنـا الثمار بها مزهوّة، فـالـقـلـوب بالنظر إلى نضارتها مجلوّة، مع ماغمرها من الـسـرور بـقـرب الـديـار، ومشاهدة الآثار، فوقفنا هناك هنيهة ر يثما روت الإبل، وتغدّى الناس، وحصل الإيناس.

ســرف :

ولـمـا قـضـينا الوطر من الوادي، و بدت من أعلام القرب الهوادي، أراد بعض الناس من شدّة القيلولة[1] ، وقوي شوق الآخر ين فشدوا الحمولة، وكنا ممن قوي عزمـه عـلـى الـسير، ورأى أن مـقـاسـاة الحرّ في جنب مايطلبه يسير، فسرنا يومنا ونسمات الوصال تهب علينا، و بشائر التلاقي تترادف إلينا.

ومـررنـا بـسـرف، و بـه قبر أم الـمـؤمـنين مـيـمـونـة رضي الله عنها، توفيت بهذا الـوادي، وكـان مـن غـر يـب الاتـفـاق أن بـنـى بها صلى الله عليه وسلم، وكان تـزوجـهـا بـمـكـة وهـو محرم في عمرة القضيّة، و بنى بها بسرف في رجوعه، وعلى قبرها بناء[2] ، ومسجد قد تهدمت جوانبه.

---

(١) كذا وفيه سقط ولعله (المقام من شدة).

(٢) الـبـنـاء عـلـى الـقـبـور محرم شرعاً، وقد طهر الله هذه البقاع المباركة من ذلك في عهدنا المبارك الميمون.

التنعـــيم :

ثم تجاوزنا وجئنا إلى التنعيم ظهراً حيث المسجد المنسوب لعائشة رضي الله عنها، بني بالمكان الذي أحرمت منه بالعمرة مع أخيها عبدالرحمن بأمر النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، ومن ذلك المكان يحرم الناس بالعمرة في المواسم وغيرها وهو أدنى الحل، حتى صار يطلق على المكان اسم العمرة، تسمية للشيء باسم مايقع فيه، كأحد التأويلات في قوله تعالى :(لهدّمت صوامع وبيع وصلوات) أي أماكن صلوات، أي سميت الأماكن بالصلوات تسمية للشيء باسم مايقع فيه.

الزاهـر :

ثم تجاوزنا إلى المكان المسمى بالزاهر، ويسمى جنان مكة، وبه آبار وأشجار، خضرات(؟) وقبر يذكر أنه قبر الصحابي الإمام عبدالله بن عمر رضي الله عنه، فقد صح أنه مات بمكة بعد الحج، فقيل : إنه دفن خارجها بوصية منه كراهية أن يدفن في البلد الذي هاجر منه، فمن قائل : إنه بهذا الوادي ومن قائل : إنه بالوادي الذي بطرف المحصّب، وهو الذي شهره كثير من الناس، إلاّ أنه ليس هناك قبر ينسب إليه.

ذو طوى :

وأكثر الناس اغتسل بهذا المكان لدخول مكة اقتداء بمن قال : إن هذا هو ذو طوى الذي بات فيه النبي صلى الله عليه وسلم واغتسل فيه. واستحب أكثر العلماء الاغتسال فيه.

والتحقيق ما عليه كثير من المؤرخين أن ذا طوى أمام هذا وليس بينه وبين مكة واد آخر، وهو الوادي الذي وراء قعيقعان، وبأسفله الموضع المسمى بالشّبيكة، حيث الثنية السفلى التي يخرج منها الحاج، فأعلى هذا الوادي هو ذو طوى، وأسفله هو الشبيكة، ولم نغتسل نحن بالزاهر، فقد أخذنا ماءنا في القرب إلى أن جئنا ذا طوى، وأنخنا الرواحل حتى اغتسلنا غسلاً خفيفاً، كما هو سنّة المحرم، وصلينا العصر هناك وسرنا عامدين مكة المشرفة، ودخلنا من باب المعلى

وهو الثنية العليا التي دخل منها صلى الله عليه وسلم المسماة بـ(كدا) بالفتح، وقد بالغ الولاة في حفر هذه الثنية، وتنقيتها من الأحجار، حتى صارت كأحد الأزقّة، ومع ذلك ففيها صعوبة، ومنها يشرف على مقبرة مكة المسماة بالحجون، وهي أحد المقابر التي تضيء لأهل السماء كما تضيء الكواكب لأهل الأرض، كما ورد في الأحاديث.

في مكــة المكــرمة

في مكّة المكرّمة

دخلنا مكة عشية يوم السبت خامس يوم من ذي الحجة، وأول يوم من السمائم ــ كفانا الله شرّ حرّها ــ ، ودخل الركب المصري قبلنا في اليوم الرابع، ودخل الركب الشامي في السادس، وبعضه في السابع، وكانوا لقوا من الحراميّة شدّة في الطريق حتى كادوا أن يتعوّقوا، ودفعوا للأعراب مالاً كثيراً نحو من مئة [1] ألف ، بعد أن انتهب من ركبهم كثير، وقتل أناس، ثم دخل ركب العراق يوم الثامن بعد ما وصل الناس إلى منى.

ولما نزلنا من الثنيَّة أنخنا الركاب بالحجون وسط المقبرة للضرورة وحططنا الرحال بين القبور، إذ لم نجد مكاناً سوى ذلك، والأركاب قد ملأت خيامهم السهل والوعر، ولم يسلم إلاّ أماكن القبور المبنيَّة أو المحوط بها، والله يغفر لنا ما اقتحمنا من ذلك. ثم ذكر الشيخ العياشي الذهاب إلى الحرم ومشاهدة البيت العتيق، وأنه قال في وصفه، وقد شمَّر البرقع ــ برقع الكسوة ــ من أسافله :

فكأنه لمّا بدا متشمراً
والطائفون به جميعاً أحدقوا

ملك همام ناهض للقاء من
قد زاره وله إليه تشوق

فتبادر الغلمان رفع ذيوله
حتى إذا رجعوا جميعاً أطلقوا

ثم ذكر الطواف والسعي بعد صلاة المغرب وقال : فوقفنا على الصفا ثم أتينا المروة في زحام كثير في المسعى، لأنه من أسواق البلد العظيمة، فيتضرر الساعي

(١) القاعدة كتابة هذه الكلمة هكذا(مائة) ولكن لاشتباهها بكلمة(مائه) وحدوث اللحن في نطقها بحيث أن كثيراً من العامة ينطقها بالألف(ماية) فقد قرر(مجمع اللغة العربية) كتابتها بدون ألف(مئة).

بذلك كثيراً، ولو قيّض الله الأمراء لمنع الناس من التّسوّق فيه أيام الموسم لكان في ذلك نفع كثير.

وما كدنا نفرغ من السعي إلاّ قرب العشاء، فدخلنا المسجد وصلينا العشاء، ثم رجعنا إلى منزلنا بالحجون وبتنا به حتى طلع الفجر، وجئنا لصلاة الصبح بالمسجد الحرام.

واكترينا منزلاً بقرب باب إبراهيم أحد أبواب الحرم الشريف من عند صاحبنا الشيخ محمد القرامسي باثني عشر ريالاً، ونقلنا إليه أكثر حوائجنا وما نحتاج لخزنه حتى نرجع من عرفة.

الأمن في مكّة :

تركنا الخباء والإبل بمنزلنا بالحجون يبيت فيه بعض أصحابنا، ولقوا من أذى السرّاق بالليل شدّة، فإنهم يهجمون على الناس هجوماً، ويعظم أذاهم في أيام الموسم لقلة الحكم بتهاون الحكام، وإرخاء العنان لهم في ذلك. وقد قيل : إنهم يأخذون منهم جعلاً على ذلك في أيام الموسم، فإذا أُتي إليهم بسارق أدخلوه الحبس على أعين الناس، فإذا جنّ الليل أخرجوه. وأما في غير الموسم، ففي تلك البلاد الحكم التام الذي لايوجد في بلد من البلاد، ويعتلّون في أيام الموسم باختلاط الناس من جميع الآفاق، وتعدد الحكام، إذ لكل ركب حاكم ويقولون: لو أطلقنا اليد في الحكومة على كل سارق ربّما وقعنا في بعض خدام أمراء الأركاب فيؤدي ذلك إلى الهرج في أيام الموسم، وتلك حجة ضعيفة.

الحرّ في مكّة :

قال :(وكانت أيام إقامتنا بمكة أيام حرّ واختناق الهواء، وكان ذلك والشمس في برج السنبلة، وأشد مايكون الحرّ في الحجاز في السنبلة والميزان).

وذكر أنه أسرع الذهاب إلى الحرم الشريف وتحدث عن قيامه بالمناسك، ووصف كل ما شاهده أثناء ذلك.

ومما قال عن الكعبة المعظمة.

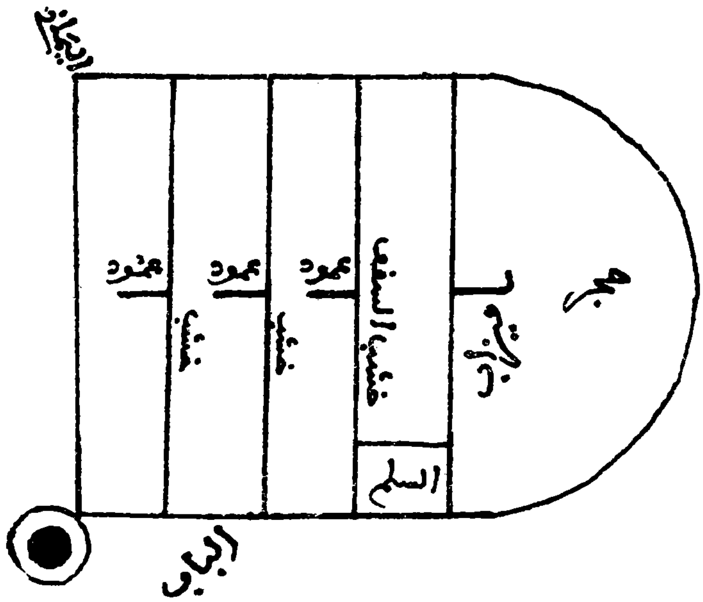
ذكر أنه بعد رمي جمرة العقبة والحلق ذهب إلى المسجد الحرام فوجد البيت مفتوحاً قال : فيسّر الله دخوله بلا كلفة ولا مشقة ولا سوء أدب ولم ندفع أجرة في ذلك لأحد، فوجدنا به بعض زحام فصلينا إلى جوانبه الأربع وغلبنا الحرّ من شدّة الحرّ فيه لكثرة ازدحام الناس ثم هبطنا ولم تطل مدة فتحه بعد هبوطنا، وإنما يفتحونه في هذا اليوم لتعليق الكسوة الجديدة، وليس بيوم دخول عام، وإنما يدخل القيِّم وأمير الحاج المصري وأتباعهما المعينين في ذلك، ولاينصب سلم للدخول، وإنما يدخل من تكلّف الصعود بمعين أو بخفة أعضاء، وعلى الباب أحد خدام الأمير يمنع الناس من الدخول، إلاّ أن الناس يكاثرونه فإن منع من جانب دخلوا من جانب آخر، وربّما يتعامى عن البعض ويحصل لكثير من الناس في ذلك المكان سوء أدب من ضرب وشتم بألفاظ ينزَّه المكان منها، فالأولى عدم الدخول إلا لمن تيسَّر له ذلك عفواً من غير إيلام.

وقد منّ الله العظيم بدخوله بعد ذلك مرات متعددة بلا كلفة ولا مشقة.

صفة البيت العتيق من داخل :

بيت مربّع، ونقص من الركن الذي عن يمين الداخل مقدار السلّم نحو ثلاثة أذرع يصعد منه إلى السطح، وأرضه مفروشة بالمرمر الملوّن المجزّع، مكسو الحيطان والسقف بكسوة على هيئة الكسوة الخارجية في الصنعة والكتابة مخالفة لها في اللون، فإن الخارجة سوداء كلها والداخلة بياض في حمرة، فيه مصابيح كبيرة معلقة، بعضها من الذهب وبعضها من البلّور الأبيض الصافي المكتوب بلون أزرق، وله ثلاثة أعمدة من خشب مصطفة في وسطه ما بين اليمين والشمال، وكل عمود منها قد سمرت عليه ألواح من عود من أسفله مقدار وقفة، وهذه صورته : (انظر الصفحة التالية).

والخشب المسقف به الذي عليه اللوح ذاهب من ناحية الباب إلى الجهة المقابلة له، أحدها : رأسه على حدّ السلّم وهو أقربها لجدار البيت، وليس بينه وبينه إلاّ مقدار ما يصلّى فيه، والثاني : بينه وبين الباب، والثالث : عند الباب، وقد أمعنت النظر فيه وإن كان ذلك سوء أدب يغتفر ذلك لمن لم يكن قصده التفرج وأراد الوقوف على حقيقة الأمر، والله يغفر و يتقبّل.



صورة داخل الكعبة في رحلة العياشي

أوقات فتح البيت :

و يفتح البيت عادة سبع مرات في السنة :ـ

١ ـ يوم النحر لتعليق الكسوة الجديدة وإزالة العتيقة، وليس بيوم دخول عامّ، و يكون فتحها في هذا اليوم عند طلوع الشمس.

٢ ـ يوم عاشوراء.

٣ ـ يوم المولد النبوي في ربيع.

٤ ـ في شعبان.

٥و٦ ـ في رمضان.

٧ ـ في ذي القعدة، و يتمادى فتحها في غير يوم النحر من حلّ النافلة إلى الزوال، و يدخلها في غيره أيضاً كل من شاء ذلك من الرجال.

وأما النساء فالعادة أن كلما فتحت الكعبة يوماً للرجال فتحت في غيره لدخول النساء، ولا يقرب ساحة البيت يوم دخول النساء أحد من الرجال كفعل النساء يوم دخول الرجال، ومن اضطر لطواف يوم دخول النساء لأجل عمرة، طاف من وراء الأعمدة والقباب كلها، فتلحقهم مشقة في ذلك.

جوّ مكة :

قال: وقد أصابتنى حمّى في بعض تلك الأيام، فاحتجمت فعافاني الله منها. وكانت تلك الأيام التي أقمنا بها بمكة أيام حرٍّ واختناق، وأكثر مايكون الحرُّ في الحجاز في السنبلة، والميزان .

الآثار في مكة المكرمة :

ومع أن العياشي تطغى عليه روح التصوف طغياناً يكاد يسدُّ عليه منافذ التفكير في كثير من الأحيان، إلاّ أنه كثيراً مايبدي شكّه وتساؤله في صحة كثير من الآثار كالموالد والمساجد وغيرها. ومن الآثار التي زارها ووصفها :

جبل حراء : وقال في وصفه : وهو جبل متوحد بأعلى مكة على ثلاثة أميال منها، وعلى رأسه قبّة ترى من المسجد الحرام، والغار في أعلاه من الناحية الغربية الموالية لمكة، وقد خرجت لزيارته مع جماعة من أصحابنا في إحدى ليالي ذي القعدة سَحَراً، وصلينا الصبح بعدما جاوزنا بيوت مكة كلها ووصلنا أعلاه عند طلوع الشمس، وهو مع صعوبته قد سُوّيت طريقه، وأزيلت الأحجار المعترضة من غالب طريقه، وبني ما يحتاج إلى البناء فيها بحيث أن الدابّة يمكنها الصعود براكبها إلى أعلاه، وفي أعلاه شبه مسجد على باب القبّة، يصلي فيه الناس، والغار من أسفل القبة بين صخرات هناك، وهو صغير جداً يسع ثلاثاً أو أربعاً(؟) فيما أظن، ويصلي فيه الناس للبركة، وقد جلسنا هناك هنيهة ريثما حلت النافلة فصلينا فيه ودعونا. وباب الغار منتكب إلى ناحية الشمال، وقد كنت أسمع هذا ــ ورأيته منصوصاً ــ أن الجالس في الغار يرى الكعبة، ولذلك اختار النبي صلى الله عليه وسلم التحنث فيه، لأن النظر إلى البيت عبادة،

فيجتمع له أنواع من العبادات، لا تكاد تجتمع في غيره، وهذا لايصح إلاّ أن يريد المحل الذي هو فيه، فإن البيت قبل أن يكتنفه البنيان العظيم قد يظهر من خارج، وأما من الغار نفسه فلا.

غريبة :أخبرني شيخنا أبو مهدي عيسى أنه خرج ذات مرّة للتحنّث بهذا الغار، وكان يخرج إليه قبل ذلك بهذا القصد، وخرج معه في هذه المرة ثلاثة من أصحابه من الهند، وكان اثنان منهما مقيمين معه، والثالث يتردد عليهما بما يحتاجان من ماء وطعام، قال : وكان معي كتاب«بداية المجتهد» للحفيد ابن رشد، أطالع فيه أحياناً، فبينما هو ذات يوم في الغار وصاحباه في القبّة، والثالث تحت صخرة هناك، إذ عرض في السماء عارض غيم وبرق، ثم أرزم الرعد، وأتى بأمر هائل، قال : مارأيت مثله قط، فلم أشك أنه الموت، ولزمت مكاني، وطبت نفساً بشرف البقعة، وقلت : حبّذا لقاء الله في مثل هذا المكان، وألزمت نفسي حضور القلب، منتظراً حلول القضاء، حتى انكشف ذلك، وخرجت من الغار فإذا صاحباي اللذان في القبّة قد ماتا، أحدهما جالس على هيئته، لم تتغير منه شعرة، والآخر ساقط قد سال الدم من بعض منافذه، فلم أرَ منظراً أهول ولا أفزع من ذلك، فالتمست الثالث من أصحابي فوجدته تحت صخرة وقد سلمه الله، فبعثته إلى مكة لنعلم أصحابنا، فبقيت هنالك وحدي منفرداً في الليل، فلم أرَ أمراً أفزع ولا أوحش من ذلك، وكان أعظم وأشق علي من الحال التي كنت عليها في الغار، فما جاء الناس مع صاحبي حتى كدت أهلك غمّاً، فاحتملنا صاحبينا، وذهبنا.

فمن ذلك الوقت مارجعت للتحنث فيه إلاّ أن أذهب زائراً ثم أرجع[1] .

غار جبل ثور :قال عنه :(خرجت لزيارته يوم الأربعاء الثامن من شوال، مع جماعة من أصحابنا المجاورين.

وجبل ثور على ثلاثة أميال من مكة، إذا مَرَّ السالك إليه فيما بين الخندمة وأبي قبيس، وهو وراءهما، وأما من مَرَّ بأسفل مكة حيث يدور إليه فأضعاف

(١): ٢ ــ ١١٣.

ذلك، وعليها يسلك من مَرَّ راكباً مع بعدها، لتوعر القريبة. وخرجنا من المسجد بعد صلاة الصبح وسلكنا الطريق القريبة فما وصلنا إلى سفحه حتى ارتفع النهار ومتع، فأخذنا في الصعود إليه.

وهو جبل منقطع عن الجبال التي حوله، ذاهب في الهواء، مشرف على كل ما حوله من الجبال، مكسوّ جلالة ومهابةً، صعب المرتقى غايةً، ما رأيت مثله فيما سلكته من الجبال على كثرتها، وفيه أماكن ما كنّا نمرّ بها إلا حَبْواً على اليدين والرجلين جميعاً، وارتفاعه في السماء نحواً من ثلاثة أميال أُخر.

والغار في أعلاه من الناحية الموالية لمكة. فما بلغنا أعلاه إلاّ بعد جهد جهيد، واستراحة مراراً متعددة، وكان ذلك في وقت الحر وقد حملنا معنا ماء، وتركنا بعضه تحت شجرة بأصل الجبل، اتقاء لمعرّة العطش بعد الرجوع. فلما وصلنا إلى محل الغار وجدناه من عجائب آثار قدرة الله، وله بابان، الأصلي الذي دخل منه النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه من ناحية المغرب وهو صغير جداً ملاصق بأرض الغار، لقد خُيّل إليّ عندما رأيته أن أحداً لايمكنه الدخول منه لضيقه، وهو شق صغير بين صخرتين عرضه ثلاثة أشبار، وارتفاعه أزيد من شبر، فأيست من الدخول منه، حتى رأيت من هو أعظم مني جثة قد دخل منه، فتحاملت ودخلت من ذلك الشق مع مشقة وترتيب أعضاء من تقديم إحدى اليدين إلى المنكب، واتباع الرأس لها، وإرسال اليد الأخرى مع الجنب.

ولقد طال تعجّبي من معرفة الناس بكونه غاراً متسعاً من داخل، فهو إن لم يكن معروفاً عندهم قبل ذلك معهوداً فالأقرب أنه بالوحي، أو إلهام من الله لرسوله، لأن العادة تكاد تقطع بأن مثل ذلك لايكون كهفاً متسعاً من داخل، إذ هو صخرة واحدة، منقطعة عن غيرها، منكفية على أخرى، منقورة في وسطها قدر الإنسان ارتفاعاً، وسعة نحو العشرة أذرع، ولولا عظم الصخرة وتواتر الخبر بأنه كذلك من قديم الزمان لتوهم أنها صخرة نقرت في وسطها، ثم قلبت على أخرى بصنع آدمي.

وأما الباب الآخر فإنه إلى ناحية المشرق، وهو واسع يدخل منه الإنسان ويخرج كما شاء.

وزعموا أنه مفتوح بصنع الآدميين، وأن سبب فتحه أن شخصاً تكلف الدخول فلم يقدر على الخروج وكرهوا تغيير الباب الأصلي بتوسعة، ففتحوا هذا الباب من الناحية الأخرى لخروج ذلك الشخص و يدخل من لم يقدر على الدخول من الباب الأصلى.

و بإزاء هذا الباب المفتوح مصطبة محوط عليها بأحجار شبه مسجد، مفروش برمل، والناس يصلون فيه و يصلون أيضاً في داخل الغار.

وفوق الغار في قنّة الجبل غار آخر كبير واسع، تحت صخرة عظيمة مفتوح من جوانبه محوط عليه بأحجار شبه مسجد آخر، يجلس الناس فيه، ولا أدري ما أصله، وفيه منظر رائق يشرف منه الإنسان على بلاد كثيرة، ولم أر في تلك الناحية جبلاً أعلى منه إلاّ جبل أكرى[١] الذي يصعد منه إلى الطائف.

وقد ذكر بعض من ألف في أخبار مكة وجبالها : أن من زار هذا الغار وكان به حزن آلمه وسأل الله إذهابه، يذهبه عنه ولا يحزن بعد ذلك، وكأنه اقتبس ذلك من قوله تعالى :(إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا) ولم أطلع على هذا إلاّ بعد رجوعنا منه، ولم يمكني الرجوع إليه مرة أخرى بهذه النية.

و بقينا هنالك في أعلى الجبل مستظلين بظل الغار الذي ذكرنا هناك حتى زالت الشمس بساعة، وصلينا هنالك الظهر وانحدرنا، وقاسينا في الهبوط مثل الطلوع أو أشد، ومررنا على الماء الذي خلفناه أسفل فشربنا، ولولا هو لأثر فينا العطش غايةً، وما وصلنا إلى مكة إلاّ مع أذان المغرب، وقد كَلّتْ منّا القُوى، وضعفت الأبدان، إلاّ أنّا مع ذلك كنا فرحين بما آتانا الله من فضله[٢] .

دار المولد :قال :(ولم نزر في هذه المدة إلاّ الدار التي فيها ولد النبى صلى الله عليه وسلم وقد اتخذت الآن مسجداً ومزاراً عظيماً يجتمع إليه الوفود من كل جانب أيام المولد النبوي)[٣]

---

(١) الصواب :(كرا).

(٢) «العياشي» ٢ ــ ١٠٢.

(٣) ١ ــ ٢٢٥.

وقال مانصه : قلت : وقد علم من كتب السير ما وقع من الاختلاف في مولده صلى الله عليه وسلم هل هو بمكة أو بالأبواء، وعلى أنه بمكة فقيل بالشعب، وقيل بالمحصّب إلى غير ذلك من الأقوال.

ولا أدري من أين أخذ الناس تعيين هذا المحل بالخصوص، اللهم إلا أن يثبت أن تلك دار والده أو جده صلى الله عليه وسلم فيترجح القول بأنه في مكة في قضية عادية، وهي أن ولادة الإنسان في الغالب في منزل والده. وإن أريد بالشعب شعب أبي طالب الذي انحاز إليه بنو هاشم وبنو المطلب في قضية الصحيفة، فلا يبعد ذلك لأن هذه الدار قريبة من الشعب من أسفله.

والعجيب أنهم عينوا محلاً من الدار مقدار مضجع، وقالوا له : موضع ولادته صلى الله عليه وسلم! ويبعد عندي كل البعد تعيين ذلك من طريق صحيح أوضعيف، لما تقدم من الخلاف في كونه في مكة أوغيرها، وعلى القول بأنه فيها ففي أيّ شعابها؟ وعلى القول بتعيين هذا الشعب ففي أيّ الدور؟ وعلى القول بتعيين الدار يبعد كل البعد تعيين الموضع من الدار، بعد مرور الأزمان والأعصار، وانقطاع الآثار.

والولادة وقعت في زمن الجاهلية، وليس هناك من يعتني بحفظ الأمكنة، سيا مع عدم تعلق غرض لهم بذلك، وبعد مجيء الإسلام فقد علم من حال الصحابة وتابعيهم ضعف اعتنائهم بالتقييد بالأماكن التي لم يتعلق بها عمل شرعي، لصرفهم اعتناءهم ــ رضي الله عنهم ــ لما هو أهم، من حفظ الشريعة، والذبِّ عنها بالسنان واللسان، وكان ذلك هو السبب في خفاء كثير من الآثار الواقعة في الإسلام، من مساجده عليه السلام، ومواضع غزواته، ومدفن كثير من أصحابه، مع وقوع ذلك في المشاهد الجليلة، فما بالك بما وقع في الجاهلية، لاسيا ما لايكاد يحضره أحد إلا من وقع له، كمولد علي ومولد عمر، ومولد فاطمة ــ رضي الله عنهم جميعهم ــ، فهذه أماكن مشهورة عند أهل مكة. فيقولون : هذا مولد فلان، هذا مولد فلان، وفي ذلك من البعد أبعد من تعيين مولده صلى الله عليه وسلم، لوقوع كثير من الآيات ليلة مولده صلى الله عليه وسلم فقد يتنبّه بعض الناس لذلك بسبب ما ظهر من الآيات، وإن كانوا أهل جاهلية. وأما

مولد غيره فمن ولد في ذلك العصر فتكاد العادة أن تقطع بعدم معرفته، الا أن يرد خبر عن صاحب الواقعة بتنبهه أو أحد من أهل بيته.

مولد فاطمة: قال عنه :(ومما زرناه أيضاً مولد فاطمة رضي الله عنها، في دار خديجة رضي الله عنها والتعيين أميل إلى صحة هذا المكان أكثر من غيره). وذكر أنه زار مولد علي رضى الله عنه، ودار أبي بكر الصديق وقال :(وغالب هذه الأمكنة اتخذت مساجد ومزارات)[1] .

المودع: وذكر من المزارات المشهورة(موضع بسوق مكة يسمى المودع)[2] ، ويقال : إن فيه ودع النبى صلى الله عليه وسلم أهل مكة لما أراد الخروج إلى المدينة في حجة الوداع، وهو مكان مشرف تظهر منه بعض أستار الكعبة، وليس في أسواق مكة محل تظهر منه الكعبة إلاّ هذا، فيقف الناس فيه للدعاء[3] .

رباط عبدالقادر الجيلاني: وقال :(وقريب من هذا المكان ـ المودع ـ رباط ينسب للشيخ عبدالقادر الجيلاني يسكنه الفقراء، وله أوقاف، وبه قبور تزار، لا أتحقق أصحابها)[4] .

مسجد الجنّ ـ قال عنه :(هو بأعلى مكة بجانب الطريق بين الدور، وفيه شجرة، يأوي إليه الفقراء، ويستظلون فيه، وهو المكان الذي جاء فيه الجنُّ إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأسلموا)[5] .

مقابر مكة: وتحدث عن مقابر مكة، ومما قال : وأما المقابر فالحجون كله من المزارات وأشهر المزارات فيه :

---

(١): ١ ـ ٢٢٦.

(٢) : لعله يقصد(المدعى).

(٣): ج٢ ص٢٧٩.

(٤) : ٢ ـ ٢٧٩.

(٥) : ٢ ـ ٢٧٩.

١ ـ قبة أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها.
٢ ـ قبة فيها قبر الفضيل بن عياض وغيره من العلماء.
٣ ـ قرأت على حجر فيه :(هذا قبر الإمام أبي القاسم القشيري) وهذا غريب أن يكون نقل بعد موته إلى هناك، فلم نَرَ أحداً من المؤرخين ذكر أنه مات بمكة.

وعلق على هذا صاحب الرحلة الناصرية :(وقد رأيت في«طبقات» الإمام السبكي التعريف بمولد أبي القاسم القشيري، وذكر أنه توفي بمكة المشرفة فعلمت قبره لاقبر أبيه(؟))[1] .

٤ ـ وبأسفل الحجون بجانب الطريق قباب كثيرة غالبها للشرفاء أمراء مكة، ومنها قبة سامية يقال لها قبة أبي طالب، وعوام الغرباء يظنونه أبا طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم، وبعضهم يقولون : أبو طالب المكي. وسألت أهل العلم بمكة فأخبروني إنما هو أمير من أمراء مكة المتأخرين من أشرافها من آل بني نُمَي اسمه أبو طالب. قالوا : وكان في حياته شجاعاً مقداماً فاتكاً، دوَّخ بلاد الحجاز، وقهر عربانها غاية القهر، وأهل نجد وتهامة إلى الآن يؤرخون بموته فيقولون : كان هذا في زمن أبي طالب. وكان سفّاكاً للدماء، ومع ذلك كان حسن السيرة، ولم يكن أحد يأتيه بالولاية(؟) لما هو عليه من الفتك والبطش. إلاّ أن بغض أهل الكشف كان يقول : هو مظهر من مظاهر أسمائه تعالى القهرية(؟) وأقيم في مقام الجلال(؟)، فلما توفي ظهرت له كرامات كثيرة، وصار قبره من أعظم المزارات).

ومن الخرافات التي أوردها عن صاحب هذا القبر :(فما ظهر له أنهم قالوا: جلس جماعة من القراء حول قبره يقرأون القرآن قرب موته كما هي عادتهم، وبين أيديهم شمعة تضيء بالليل، فوقعت إلى الأرض فانطفأت، فتحيروا ولم يجدوا من يوقدها لهم، فانشق القبر عياناً، وخرج منه فأوقد لهم الشمعة ورجع. أخبرني بذلك ثقة، وزعم أنه مستفيض عندهم. ومنها أن بدوياً خرج من مكة بقفص عنب، فلما وصل قبره تذكر حاجته بمكة فوضع القفص ورجع، فجاء سارق

(١) مابين المربعين من «الناصرية» ١ ـ ٢٢٥.

ليأخذه، فيبست يده، والتصقت بالقفص، وبقي واقفاً عنده حائراً إلى أن جاء البدوي فرأى ذلك، فلما علم الأمر قال :ــ على حسب نيته ــ: جد يا أبا طالب، جد يا أبا طالب. أطلقه الآن، فقد قضيتُ حاجتي، فانطلقت يد السارق وذهب)(١) .

قبر عمر العربي :قال :(ومن المزارات قبر القطب الولي الشهير الذكر عند أهل مكة وأعرابها سيدي عمر العربي، وغالب السائلين بمكة والمستصرخين إنما يهتفون باسمه، وأهل البادية تسمع الرجال والنساء منهم يقولون : شيء لله ياعربي. وهو عندهم عظيم القدر، شهير الذكر، وحُقّ له ذلك فإنه كان من أئمة الطريق)(٢) انتهى كلامه.

جبل أبي قبيس :وقال : ومنها ــ الأمكنة التي تزار ــ جبل أبي قبيس يشرف منه على مكة كلها، والمسجد والبيت، وفيه مغارة يقال إن فيها قبر آدم، والحجاج يشترون من مكة رؤوس الغنم المشوية، ويصعدون إليه، ويأكلونها فيه، ويزعمون أن من فعل ذلك أمِنَ من وجع الأسنان والرأس.

مولد عمر :وقال : (ومنها قبة على الجبل الذي على يسار الذاهب إلى الشبيكة، ويقال إن فيها مولد عمر رضى الله عنه).

دار الأرقم :(ومن المزارات المشهورة بمكة دار الأرقم التي اختفى فيها النبي صلى الله عليه وسلم، وفيها كان إسلام عمر، وخبرها مشهور في السير، وهي الآن مسجد قرب الصفا).

حجر المرفق :قال :(ومنها ــ الآثار التي تزار ــ حجر في بعض أزقة مكة مبني في جداره فيه أثر مرفق يقال إنه مرفق النبي صلى الله عليه وسلم).

---

(١) ذكرت هذه الخرافات لكي يدرك القارىء مدى ما يبلغه تفكير أهل ذلك العصر، ومقدار سيطرة ذوي التخريف والجهل على أهله ــ ولا حول ولا قوة إلاّ بالله ــ.

(٢) ولم يؤت المسلمون إلاّ من باب الاعتقاد بهؤلاء الذين ينسبون إلى الصلاح، بحيث تجاوزوا الحدّ في تعظيمهم إلى درجة الاستصراخ بهم ودعائهم، وهذا هو الضلال الذي لا ضلال بعده.

(وبقرب دار أبي بكر رضي الله عنه حجر في جدار فيه كأثر المرفق، يقال : إن مرفق النبي صلى الله عليه وسلم غاصت فيه لما استند إليه، والناس يتمسحون به ويتبركون، وقد تمسحنا به وتبركنا بالنية المتقدمة) انتهى.

وهذا التمسح لايجوز شرعاً، لوصَحَّ ما قيل عن هذا الحجر، فكيف وما ذكر عنه خرافة من الخرافات. وعَدَّ من الأماكن التي ينبغي أن تزار، ــ عدا ماتقدم ذكره ــ مَحَلاً في الجبل المشرف على المحصَّب، على يمين الذاهب من مكة إلى منى، يزعم أهل مكة أن فيه قبر عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

الآثار في منى

الآثار في منى

ونواصِلُ السير مع الرحّالة العيّاشي المغربي، بتلخيص ما يتعلق بالحجاز من رحلته «ماء الموائد»، فقد وصف الآثار التي شاهدها في مكة.. وذكر الأمكنة التي ينبغي أن تزار.

لقد أدّى مناسك الحج سنة ١٠٧٣ وسنكتفي بعرض لمحات من مشاهداته بإيجاز، إذ الكلام عن الحج ومناسكه ومشاعره، وما يفعله المرء من الاستعداد لأدائه من الأمور التي تتكرر في كل زمان عند جميع من كتبوا عن ذلك.

المبيت بمنى قبل الوقوف :

قال :(وكان نزولنا بمنى فوق مسجد الخيف بسفح ثبير... وبتنا تلك الليلة بمنى ولم يبت بها إلا المغاربة وقليل من غيرهم، وكثير من الناس ذهبوا إلى عرفات، وذلك دأبهم منذ أزمان، فقد قال الحطاب : وهذه السنة ــ أعني المبيت بمنى هذه الليلة ــ قد أُميتت منذ أزمان، وقد ذكر ذلك كثير من المرتحلين كابن رشيد والعبدري ومن بعدهما، وذكروا أن الخوف يمنع من المبيت هناك بعد ذهاب الأركاب.

وصف الموقف النبوي بعرفة :

قال العياشي :(إلى أن وصلنا إلى موقف النبي صلى الله عليه وسلم وما عرفناه قبل هذه السنة(١٠٧٣)هـ وبعث معنا شيخنا أبو مهدي رجلاً دلّنا عليه، وهو تحت موقف الإمام اليوم في أصل الجبل على صخرات مفترشة، وبني على تلك الصخرات محوط شبه مسجد)(١) .

(١) «العياشية» ١ /١٩٣.

ثم وصف الانصراف من عرفة، والنزول بمزدلفة، وقال :(وعدلنا يميننا واستندنا للجبل ونزلنا ـ في المزدلفة ـ فلما غاب القمر أخذ السراق يرموننا بالأحجار من الجبل لقربنا منهم، وكان ظنهم يخرجوننا من الرحال بذلك فيصادفوا فرصة، فكفانا الله شرهم)[1] .

وادي النَّار (محسر) :

وقال :(وسرنا حتى جئنا وادي النار، وأسرعنا به، وهو أول ما تحاذي البركة الخربة التي على يسارك إن مررت بطريق الأركاب، وأنت ذاهبٌ إلى منى حتى تأخذ في الطلوع إلى منى، وترتفع بك الأرض، وبهذا عَرَّفَهُ أعلم عصره بالمناسك خليل المكي حسبما نقله عنه البلويُّ في رحلته، إذا سأله عن حدّه)[2] .

ونقل في موضع آخر عن رحلة ابن رشيد[3] ما نَصُّه : قال أبو عمرو بن الصَّلاح : وأول مُحَسِّر من القرن المشرف من الجبل، الذي على يسار الذاهب إلى منى، ثم يخرج منه سائراً إلى منى سالكاً للطريق الوسطى التي تخرج إلى الكعبة(؟) وليس من مُزْدَلِفة ولا من منى، وهو مسيل مابينهما)[4] انتهى.

في منى أيام التشريق :قال(ثم جئنا إلى منازلنا بمنى، وكان نزولنا وراء المسجد قرب الغار الذي نزلت به سورة المرسلات على النبي صلى الله عليه وسلم، وخبره مذكور في الصحيح، وقد بني على بابه محوط شبه مسجد صغير... وهو في أصل جبل ثبير، بينه وبين مسجد الخيف رمية بحجر.

وكان نزولنا في هذا المحل إيثاراً لقرب هذا المكان وقرب المسجد، مع كونه أنظف وأوسع، وأقرب للجبل الذي يشرف منه على منى كلها، وهو أستر وأمكن للإنسان في حاجته، والناس يتحامون القرب من الجبل تقية من أذى السراق، يستجير بعضهم ببعض، ويفرون إلى الدخول في غمار الناس، لايبالون بما نالهم

(١) : «العياشية» ١ /١٦٤.

(٢) : «العياشية» ١ /١٦٥.

(٣) : نشرت«العرب» كل مايتعلق منها بالحجاز.

(٤) : «الرحلة العياشية» ٢ /٢٥٥.

في ذلك من وطء الأقدام، وتقطيع الحبال، وتعفن الأرجاء، واستنشاق الروائح الكريهة، ونحن استسهلنا أمر السرقة في جنب هذه المضار، وكان منزلنا أنظف المنازل وأحسنها وأبعدها عن الأذى وأبهجها)(١) .

وصف سوق منى :

(ثم في الغد عمرت الأسواق، وكثر الإنفاق، وخرجت البضائع ذوات الأثمان وصنوف التجارات، وتزاحم الناس على الشراء رجاء لبركة ذلك المكان، وأكثر التجار يقولون : إن من اشترى شيئاً من منى وجعله في تجارته وجد بركته، وظهرت له ثمرته، ولا يبعد ذلك فإنه موسم شريف، ومحل بركة، يأتيه الناس من كل فجٍّ عميق، ليشهدوا منافع لهم)(٢) .

ذبائح منى :(وقد ذبح في منى ذلك اليوم والذي بعده من البقر والغنم ما أحْسَبَ الغنيّ والفقير، وكفى الوارد والمستوطن، وامتلأت الطرقات وأفنية المنازل باللحم، وأما الجلد والساقط والأكارع فلا ترى أحداً يأخذها، بل بقي كثير من الغنم غير مسلوخ إلى أن ارتحل الناس من هناك، لم يمسه الناس، فمن الفقراء من يأخذ نحواً من عشرة من الغنم، فيبيعون لحومها بأرخص ثمن، و ييبّسون ما قدروا عليه، ضيافة الله الذي لايقدر أحد على كفاية خلقه سواه، فقد ورد من آفاق الأرض أصناف من الخلق لاتحصى، أغنياءوفقراء، فأكل الكلُّ من ضيافة مالكهم، وتزودوا ما قدروا، وفضل ما أعجز الطير والوحش والهوامّ، فأقسم لقد مررت بهذا المكان بعد سنة أو قريباً من ذلك في قفولي من الطائف فوجدت به عدة كثيرة من الغنم قد يبست جلودها على لحومها وعظامها لم تُمَسَّ إلى أن صارت مثل الخشب من يبسها)(٣) .

المنازل في منى :(وبعد الفراغ من الرمي جئت لمنزل شيخنا تاج الدين فوجدت عندهم شيخنا سيدي عيسى الثعالبي... ولأهل مكة ــ خصوصاً الأكابر من أهل الوظائف كالعلماء والأمراء والتجار وأكابر البلد ــ منازل بمنى

---

(١) : «العياشية» ١ /١٩٨.

(٢) : «العياشية» ١ /١٩٩.

(٣) : «العياشية» ١ /١٩٨.

ينزلونها أيام الموسم، متقنة البناء، غالبها مشرف على السوق فيها غرف عالية، ومطابخ ومرافق، وربما نزلوها في بعض الأحيان في فصل الربيع فصل التفرج ومنزل شيخنا تاج الدين المالكي هذا من أحسن المنازل، له مصطبة مونقة بجانب الطريق، لها شبابيك)[١] .

الليلة الثانية في منى :

(ولما كانت الليلة الثانية من ليالي منى بالغ أهل مصر والشام في إيقاد المصابيح، واتخاذ المصانع منها[٢] ، وصور الأشجار والأخبية، وأكثروا الرمي بالمدافع والبنادق والمحارق المرتفعة في الجو، وفعل مثل ذلك السلطان زيد، وفي ذلك نزهة للأبصار، وتسلية للأفكار، ومجال للاتعاظ والإذكار، والقبول والإنكار، منزل جمع أصناف العباد، وحشر إليه عمّار البلاد، فهو أجمل الأندية، ومبانيه أحسن الأبنية، تشرق بالنهار فَسَاطِيْطه المونقة، وبالليل مصابيحه المشرقة).

ثم وصف ما شاهده من الآثار في مِنى، ومنها :

مسجد العقبة :قال :(وهذا المسجد هو المكان الذي بايع الأنصار صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة، فهو من المساجد المنسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم... وهو في الشعب تحت جمرة العقبة بيسير على يسارك وأنت ذاهب من مكة إلى منى)[٣] .

مسجد الخيف :(وهذا المسجد يسمى مسجد عليّ، قيل إن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أول من بناه، وهو موضع منزل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في حجة الوادع).

وطول هذا المسجد من المحراب إلى الباب الذي يقابله ٤٠٠ قدم وعرضه ٣٤٠ وبوسط المسجد قبة مثمنة كل ثمن منها ٢٤ ذراعاً من خارجه.[٤]

---

(١) : «العياشية» ١ /٢٠١.

(٢) : «العياشية» ١ /١٩٩.

(٣) : «العياشية» ١ /١٩٨.

(٤) : «العياشية» ١ /٢٠٤.

ورأيت في بعض التواريخ أن في محل هذه القبة كان فسطاطه عليه السلام وصحن هذا المسجد كبير، إذ المسقف منه مقدمه نحو أربعة صفوف، ومن سائر الجوانب غير مسقف).

مسجد النحر بمنى :(مسجد النحر وهو موضع منحر النبي صلى الله عليه وسلم، وهو في وسط الدور مقابلة الجمرة الوسطى، وما عرفته إلا في هذه السنة(١٠٧٣هـ) دلني عليه شيخنا أبو مهدي، وهو مسجد واسع حسن البناء إلا أنه انهدم أكثره، وتلوث بالأقذار والكناسات)[١] .

مسجد الكبش :(وهو في شعب مقابل الجمرة الوسطى على يمين الذاهب إلى العقبة، وهو بين صخور كبار، ليس حوله ديار، ويقال إنه الموضع الذي أخذ فيه إبراهيم عليه السلام الكبش الذي فدى به الذَّبيح عليه السلام، وهناك ذبحه)[٢] .

انتهاك المساجد والمزارات خارج مكة :وقال(وغالب المساجد والمزارات التي هي خارج مكة تنتهك في أيام الموسم، وينزلها الناس بدوابهم، ويطبخون فيها من غير نكير، وهي من البلايا العظيمة)[٣] .

التعجل من منى :(وفي اليوم الثالث تعجَّل الناس كلهم وتلك عادتهم ولم يبق إلا ركب أهل العراق، وكلمنا أصحابنا المغاربة فأبوا إلا الاستعجال لشراء القماش بمكة ظنّاً منهم أن بتأخير يوم يفوت غرضهم، ولم يشعروا أن ما فاتهم من ثواب هذه الليلة وإحياء هذه السنة أعظم مما يدركون من الغرض العاجل مع أنه لا يفوتهم ولو تأخروا)[٤] .

ــ ولما زالت الشمس من اليوم الرابع ارتحلنا من منى ورمينا الجمار بلا زحمة إذ لم يبق بمنى إلا نحن وركب أهل العراق.

---

(١) : «العياشية» ٢ /٢٨٣.
(٢) : «العياشية» ٢ /٢٨٤.
(٣) : «العياشية» ٢ /٢٨٣.
(٤) : «العياشية» ١ /٢٠٤.

ثم سرنا حتى نزلنا المحصّب، ولم يحصّب أحد سوانا، بل كثير من الناس لايعرفونه، وتعجبوا من نزولنا هناك، وصلينا بالمحصّب الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وبعده أخذنا في الرحيل فأصابنا مطر وابل، ولم يمكنا المرور وسط مكة للزحمة والظلمة فعدلنا ذات اليمين إلى كداء، ومررنا وراء الجبل حتى نزلنا أسفل ذي طوى بالمحل المسمى بالشبيكة، وهناك ينزل الركب المغربي، وبتنا هناك، ثم تركنا هناك خباءنا وإبلنا وبعض أصحابنا ودخلنا إلى مكة، ونزلنا بالمكان الذي اكتريناه قرب باب إبراهيم)[١] .

وصف منى قبل نزول الحجاج فيه :وتأملت بسيط منى وشعابه، وتبينت سعتها وامتدادها[٢] ، وكانت في أيام الموسم ربما يخيل إلى الناظر ضيقها لكثرة الخلق، ومن رأى منى وما حولها من الأماكن في غير أيام الموسم علم حسن تشبيه من قال : من أراد أن ينظر إلى الدنيا بعد انقراض أهلها فلينظر إلى منزل الراكب بعد ارتحاله. ومنى في أيام الموسم هي الدنيا بأسرها، قصور عالية،

وأسواق حافلة، وجنود مجنّدة، وملابس فاخرة، وأطعمة شهية، ومراكب هنية، وبضائع غير معدودة، ومتاجر ثمينة، إلى أنواع العبادات من تكبير وتهليل، وصلاة وقراءة ونحو ذلك، وإطعام طعام، ورمي حجار، وما الدنيا محمودها ومذمومها إلا ما ذكرنا.

ولا تمر على ذلك كله ثلاثة أيام حتى لاتُحِسُّ منهم من أحدٍ ولا تسمع لهم ركزاً، فلا ترى في منازلهم إلا عظاماً نخرة، وخرقاً بالية، وفضلات منتنة، وغثاءً أحوى، وقتاماً أغبر، تسفيه الريح وتذروه، وهذا هو الحقيقي(؟) للدنيا، فليعتبر أولو الأبصار، من سكان البادية والأمصار)[٣] .

---

(١) : «العياشية» ١ /٢٠٥.

(٢) : في ٢٤ ذي القعدة سنة ١٠٧٣.

(٣) : «العياشية» ٢ /١٢٥.

بعض من اجتمع به من العلماء في مكة

بعض من اجتمع به من العلماء بمكة

واجتمع في مكة بعلمائها وغيرهم من المجاورين والوافدين، ومنهم :

١)ـ **العلاّمة أبو مهدي عيسى بن محمد الثعالبي الجعفري المغربي المجاور** بحرم الله وحرم رسوله(١) .

- وذكر أنه من وطن الثعالبة قومه، وهي من عمالة الجزائر، وعشيرته ينتسبون إلى الإمام جعفر بن أبي طالب(٢) .
- وزاره في داره بباب الحزورة، وتلقى عليه الذكر وألبسه الخرق الثمانية وأخذ عنه طريقة النقشبندية(٣) .
- واجتمع به في المدينة وسمع عليه كثيراً من الكتب(٤) .
- ذكر غرق كتبه في سيل الحرم سنة ١٠٧٣(٥) .
- تحدث عنه وأطال الثناء(٦) .

٢) **تاج الدين المالكي** ويعبر عنه بـ(شيخنا).

اجتمع به في منى وتحدث عن منزله، واجتمع بشيخه الثعالبي عنده(٧) .

٣) الشيخ سليمان بن الشيخ عبدالعزيز الحبيشي(؟).

قال :(ولقيت بالقبة التي في وسط مسجد الخيف ـ الشيخ سليمان ابن الشيخ عبدالعزيز الحبيشي من مدينة الأحساء بالموصل وتكلمنا معه، فوجدته له

(١) : ١ ـ ١٩٢.
(٢) : ٢ ـ ١٩٦.
(٣) : ١ ـ ٢٠٧.
(٤) : ١ ـ ٣١٣.
(٥) : ٢ ـ ١٩٧.
(٦) : ٢ ـ ١٢٦ إلى ٢١٢ و ٢٨٦.
(٧) : ١ ـ ١٩٩.

مشاركة حسنة في كثير من العلوم، وحصلت بيني وبينه إلفة، ولم يزل يتعاهدني أيام الإقامة بمكة، وأهدى لي من ثمار بلدهم، وهو من أجود التمر، وقد عقدت معه عقد أخوة في الله، وكتب لي بذلك خطه[1] .

٤) جمال الدين الهندي النقشبندي :

قال :(اجتمعت بالشيخ جمال الدين الهندي بالمدرسة الداوودية، جمعني به شيخنا وصاحبنا الشيخ علي حاج اليمني بعدما سألته عمن هو اليوم في الحرمين أفضل هذه الطائفة النقشبندية، فدلني على الشيخ جمال الدين وأخذت عنه طريق السادات النقشبندية ببيته، وذكر أنه لقيه أيضاً في المدينة، وأخذ عنه[2] .

٥) زين العابدين الطبري الحسيني عالم مكة وابن عالمها :

ذهبت إلى شيخنا زين العابدين الطبري فوجدته بداره وسلمت عليه، ورحب بي كثيراً، وعزيته في أخيه شيخنا أبي الحسن وواعدني يوم السبت لتلقين الذكر ولباس الخرقة، واعتذر بكثرة الأشغال بولايته الفتوى مضافة إلى إمامة المقام مع شغل الناس بأيام الموسم — ثم ذكر اجتماعه به مرة أخرى وأطال، ووصفه بأنه مفتي الشافعية وإمام المقام[3] .

٦) حسن بن علي بن يحيى بن عمر العجيمي المكي الحنفي :

نقل عنه أشياء كثيرة صوفية[4] .

٧) أحمد بن القاضي تاج الدين الأنصاري المالكي، وقاضي المالكية بمكة

اجتمع به في المدينة ثم اجتمع به في مكة، وأورد كثيراً من قصائد والده الشيخ تاج الدين المتوفى سنة ١٠٧٠ تقريباً[5] .

---

(١) : ١ — ٢٠٤.

(٢) : ج١ ص٢٠٥ و ٤٥٣.

(٣) : ١ — ٢٠٦و ٢ — ١٢٥.

(٤) : ٢ — ٢١٣ إلى ٢٣٠.

(٥) : ٢ — ٢٣٠ إلى ٢٤٠.

أهل مكة وبعض عاداتهم

وتحـدث كثيراً عن أهل مكة، وذكر بعض عاداتهم، ووصف ما شاهده منها، ومن ذلك قوله :

فـي وصف أهل مكة في شهر رمضان، :(واجتهد أهل الثروة من أهل مكة، فكان لكل واحد منهم مصباح كبير بين يديه ، وخصفة يجلس فيها كل ليلة بالمسجد، و يأتي بنفر يقرأون عنده في القرآن أجزاء على المناو بة، إلى أن تذهب حصة من الليل، فإن كان قارئاً قرأ معهم، وإلاّ استمع، و يسقيهم من الأشربة اللذيذة على قدر وسعهم، و يطيبهم، و يستعدون لذلك، فترى صحن المسجد على سعته يزهر مصابيح، وعلى كل مصباح نفر يقرأون، فإذا كان ليلة الختم احتفل لها أكثر، حتى تكون ليلة العيد، فيعطي كل واحد منهم لمن يقرأ عنده كسوة ودراهم، على قدر ماله ومروءته، فينتفع بذلك غايةً ضعفة المغاربة المجاور ين ممن كان يستظهر القرآن، سيما من كان حسن الصوت منهم. ومن كانت فيه صرامة يقرأ في عدة أماكن، و يأخذ من كل مكان ماشُورِط عليه)[1] .

ووصفهم في أداء صلاة العيد، فقال :(ولما كان يوم الفطر بكر الناس لأخذ مواضعهم للصلاة في المسجد... فلم يأت الإمام حتى ارتفعت الشمس و بدأ الحر، وخطب خطبة بليغة وأطالها.

وقدم مع الإمام جماعة من المؤذنين وأكابر الناس معهم ألو ية، وعلى المنبر ألو ية أخر، وفرش المنبر كله بالديباج، وجلس المؤذنون تحته إلى باب المنبر، فلما وصل إلى ذكر السلطان والدعاء له قام إليه أحد أصحاب الأمير وخلع عليه الخلعة، وهو يخطب، وما هو إلا أن يخلع عليه فيذهب الذين معه، وتتابع الناس أفواجاً، حتى لايكاد يبقى مع الخطيب إلاّ قليل من الناس، ولا ينتظرون فراغ الخطبة ولا دعاء الإمام، وكأنّ قصدهم إنما هو مشاهدة الخلع على الخطيب، وتلك عادة مذمومة.

ولما انفضّ الجمع ذهبَ كل أحد إلى منزله، ومن كان له صديق حميم أو

---

(١) : ٢ — ٩٩.

قريب أو وليّ نعمة ذهب للسلام عليه في مجلسه ولو لقيه في المسجد أو جلس معه لايكتفي بذلك حتى يأتيه إلى منزله)(١) .

ووصف الحرم في شهر رمضان، قال :(وبولغ في تنظيف مقامات الأئمة الأربعة، في كل مقام إمام يصلي بصلاته جماعة كثيرة من أهل مذهبه، ولهم مسمع. وأعظمهم أئمة، وأكثرهم جعجعة وأصواتاً مرتفعة الحنفيّة، فيفصلون بين كل تسليمتين بتحميدات وتهليلات وتسبيحات يرفع بها جماعة كثيرة من المؤذنين أصواتهم فيرتجُّ لذلك ما حولهم من المسجد.

فإذا كان ليلة ختم كل واحد من أئمة المقامات احتفل لذلك أتمَّ احتفال، وزيد في مصابيح المقام وفرشه وطيبه، وأُتي بشموع كبار هائلة، ورفعت على حسك عظيمة رائعة، ويحضر الختم غالب من في المسجد من الناس، ويخلع على الإمام بعد الفراغ من الصلاة خلعة من عند السلطان، ويعطى فتوحاً (؟) زائداً على الخلعة، كلٌّ على قدر حاله.

وأول من يختم الشافعي وهو إمام مقام إبراهيم عليه السلام، ويختم ليلة إحدى وعشرين، والمالكي ليلة خمس وعشرين، والحنفي ليلة سبع وعشرين(٢) .

من عادات أهل مكة :

عندما تحدث عن الأماكن التي تزار ــ محل في الجبل المشرف على المحصب، على يمين الذاهب من مكة إلى منى، يزعم أهل مكة أن فيه قبر عبدالله بن عمر رضي الله عنه، فيخرجون إليه في إحدى ليالي ذي القعدة ــ أظنها الثالثة عشر ــ رجالاً ونساء، كباراً وصغاراً، فيبيتون هناك عامة ليلتهم، ولم أخرج معهم تلك الليلة، إذ لا أعلم أصْلاً لذلك. وسألت أهل العلم بمكة فأخبروني أنهم لايعلمون لذلك أصْلاً، قال : ومن جملة خرافاتهم المتعلقة بتلك الليلة أنهم يأخذون معهم نوى التمر فيدفنونه في الأرض في ذلك الجبل تلك الليلة

(١) : ٢ ــ ١٠١.
(٢) : ٢ ــ ١٠٠.

ويزعمون أن من دفن شيئاً حصل له في الليلة بعدده ريالاً أو دنانير. وأغرب من ذلك ما حكى بعض أصحابنا تصديقاً لزعمهم ذلك، أن الشيخ علي بن الجمال الشافعي من فقهاء مكة المعتبرين خرج مع أهل مكة في بعض السنين إلى هذا المحل، فلما رأى فعلهم ذلك أنكره، ثم إنه جمع شيئاً من النوى نحو المائتين ودفنها، ثم وجد سبعاً أخرى ودفنها، وهو في كل ذلك كالمتلاعب، فلما كان وقت الموسم بينما هو جالس في المسجد الحرام، إذ جاء شخص من أهل العراق يسأل عنه حتى وجده فناوله صرّة كبيرة، وقال له : إن جماعة من طلبة الأحساء كانوا يقرأون هنا عندك، وقد جمعوا لك هذه الدراهم بقصد التبرك منك وهم يسلمون عليك، وهي مائتا ريال. قال : فوقع في نفسي تصديق ما زعموا وإني كنت دفنت مائتي نواة، ثم قلت : وأين السبعة التي دفنتها بعد ذلك؟ فلم أبرح مكاني حتى رجع إليّ ذلك الإنسان وقال لي : ياسيدي وهذه سبعة أخرى قد تبعني بها شخص بعدما فارقت أولئك الجماعة. وقال : أوصلها إلى الشيخ. قال : فتعجبت من ذلك، ومن موافقته للحال.

والذي أخبرني بذلك عن الشيخ ثقة عندي، ولم أدرك حياة الشيخ علي في هذه المرة، وأدركته فيما قبل هذا، ولم يتفق لي لقاؤه، ولا الأخذ عنه، وكان من فضلاء الشافعية المدرسين بالحرم المكي[١].

وقال عن مولد العيدروس :(ولأهل مكة في هذه الليلة(١٣ ذي القعدة) عمل مولد كبير في مشهد السيد العيدروس عند الشبيكة، يجتمع هنالك جماعة من أولاده وأتباعه السالكين على طريقه، ويعمل هناك سماع وقراءة وتلاوة، ويجتمع فيه خلق كثير، وقد فرش المشهد كله وما حوله، وأُعِدّتْ للحاضرين أطعمة وأشربة، ويستكثر هناك من المصابيح، وقد زرته في هذه الليلة رضي الله عنه ومشهده من المشاهد المشهورة بمكة، والمزارات المعظمة، وبيتهم له صيت ومكانة عند الخاص والعام[٢] انتهى. ومن المعروف أن كثيراً من تلك العادات الخرافية قد زالت ولله الحمد، وإنما المقصود ذكر أمور تاريخية مضت، للاعتبار.

---

(١) : «العياشي» ٢ ــ ١١٢.

(٢) : ٢ ــ ١١٢.

الشريف زيد بن محسن
حاكم الحجاز من سنة ١٠٤١ إلى سنة ١٠٧٧

الشريف زيد بن محسن

حاكم الحجاز من سنة ١٠٤١ إلى سنة ١٠٧٧

ووصف الشيخ العياشي أمير مكة حين شاهد موكبه في منى أثناء حج ١٠٧٣ وهو الشريف زيد بن محسن بن حسين بن حسن بن أبي نُميّ — وبالغ في الثناء عليه.

وزيد هذا ولد سنة ١٠١٤ وتولى إمارة مكة سنة ١٠٤١هـ وتوفي سنة ١٠٧٧ — ومع أنه وصف بحسن السيرة إلاّ أن ابن بشر ذكر في سوابق« عنوان المجد» مانصه :(وفي سنة ١٠٥٧ سار زيد بن محسن إلى نجد، ونزل الروضة في سُدير، وقتل رئيسها محمد بن ماضي بن محمد بن ثاري، وفعل مافعل من القبح والفساد) انتهى، وهذا يدل على خلاف ما وصف من حسن سيرته.

قال العياشي عنه : بينما نحن جالسون — في منزل الشيخ تاج الدين المالكي في منى المطل على السوق — إذ مرَّ أمير مكة الشريف زيد في موكبه، وله شارة حسنة، ومعه طائفة من الأشراف والجند، ذاهباً لرمي الجمار، قد ظلل على رأسه بمظلة كبيرة من حرير، كأنها قبة خباء يحملها فارسٌ بجانبه يُسايره وهو في ظلها، والناس يحيونه عن اليمين والشمال، فالعوامُّ يقولون في تحيتهم : نصرك الله يازيد، والخواص يقولون : السلام عليكم. وهو يرد على كل من حيّا له من وضيع وشريف، ولا يهمل أحداً، ويشير برأسه إلى كل من حيّاه، وذلك لشدّة تواضعه — رضي الله عنه —.

وهو رجل أسمر اللون، أبيض اللحية، سمح الوجه، ضربٌ من الرجال إلى النحافة أميل.

وأثنى من حضر المجلس عليه كثيراً في سيرته وعقيدته، وأثنى عليه شيخنا أبو مهدي(عيسى الثعالبي).

وهذا الأمير من أحسن أمراء عصره سياسة وحسن تدبير، ولم تزل الإمارة في أسلافه منذ أعصار متطاولة، وأسلافه هم المشهورون بآل أبي نُمَيّ، وهو بطن من بني حسن، وإخوانهم بنو حسين لهم إمرة المدينة، وولاية الحجاز الآن بأطرافه من أطراف اليمن إلى أقصى نجد مما يلي البصرة ثم إلى خيبر مما يلي ناحية الشام ثم إلى الينبع كلها للأمير زيد بن محسن وأسلافه، وليس لبني حسين في ولاية المدينة في هذا الزمان إلاّ الاسم فقط، وبعض تصرُّف من تحت يد الأمير زيد.

وكان هذا الأمير فيما مضى على معتقد أهل بيته كاعتقاد الزيديّة ثم باينهم ورجع إلى معتقد أهل السنّة، وتمذهب بمذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه وحسن اعتقاده في علماء السنة، وبالغ في تعظيمهم، وكفَّ أهل بيته عن كثير مما كانوا ينالون من أهل السنّة، ومنعهم من إظهار معتقداتهم.

وقد بلغنا أنهم اجتمعوا ذات يوم ولاموه على رجوعه عن مذهبهم فقال لهم : ألا يكفيكم مني أني لم أجبركم ولم أقهركم على الرجوع عما أنتم عليه؟ إنما هو دينٌ، لا يسع المرء فيه إلاّ اعتقاد ماهو الحق، واتباع ما يغلب على ظنه أنه على الحق والهدى، وقد ظهر لي صحة مارجعت إليه، فإن رأيتم ما رأيت، وتبيّن لكم ماتبين لي فينبغي لكم أن ترجعوا إلى الحق والهدى، وان لم تروه فلكم دينكم ولي ديني، فمن ذلك اليوم أيسوا منه.

وقد استفاض على الألسنة أنه من الأولياء لما يرون من إجابة(؟) وكثرة عبادته، وشدة تواضعه، وإن كان تصرفات عماله لاتخلو من جور في الأموال كما هو شأن ولاة العصر.

وقد أخبرني من أثق به أنه كان ذات يوم دعا بعض عماله ليذهب إلى خُلَيْص في أيام الموسم يجلس فيها مع طائفة من عسكر رَدْعاً للصوص وتأميناً للسبل، كما هو شأنه في سائر الطرقات أيام الموسم، فاعتذر العامل بأنه مريض ولا مرض به، فألحَّ عليه في ذلك فقال : إني مريض لا أقدر. فقال له : إن كنت صادقاً فشفاك الله وإن كنت كاذباً فأماتك الله. قالوا : وكان ذلك صُبْحاً، فلم يأت الظهر حتى مات ذلك العامل، وأمثال هذا من إجابة دعواته كثير، حتى كانت أعراب الحجاز تقول : نخاف من دعوة زيد أكثر مما نخاف من سيفه.

ومن محاسنه أنه لم يقتل قطُّ أحداً من أهل بيته مع كثرتهم، وكثرة خروجهم عليه، وسعيهم بالفساد في ملكه، ولكن كل من أحسَّ منه ذلك يقول له : لا تَسَعك بلادي. فيخرجه من مكة فلا يزال يحارب مع الأعراب و يسعى في إفساد المملكة حتى يذهب ما بيده من الأموال فيرجع إليه صاغراً، حتى أيسوا من القيام عليه فأذعنوا له، وكثير من العوام يقولون : إنه قطب لأنه مكث في ولاية مكة أكثر من ثلاثين سنة. قالوا : ولا يمكث ثلاثين سنة في ملك مكة إلاّ القطب، ولا أدري من أين لهم ذلك. والغالب أن الله تعالى لايمكن من حرمه الأمين وبلد نبيه المكين هذه المدة المتطاولة مع حسن دفاعه عنه، وكفايته أعداءه إلاّ من له عنده مكانة، وله به عناية، مع ما منَّ الله به من حسن الاعتقاد، والإكثار من العبادة، والطواف بالليل في غمار الناس حيث لايُعرف.

وكثير من الناس ربما وسموه بالبخل، وقد أخبرني شيخنا أبو مهدي أنه على خلاف ذلك، وأنه يعتمد بصدقاته ومعروفه الأخفياء من العلماء والأتقياء ممن ليست له وظيفة معلومة، و يبعث لهم وإلى الفقراء من معروفه بليل، بحيث لايشعر بذلك إلاّ خواص أصحابه، وأما أهل المناصب والوظائف فلا ينالهم من معروفه إلاّ القليل فيسمونه لذلك بالبخل.

ومن محاسنه تورعه عن سفك الدماء مع شدّة بسالته بحيث تضرب به الأمثال في الشجاعة في حروبه، وأكثر ما يعاقب بالمال إلاّ في حدٍّ من الحدود.

وكثير ما يقع من عماله ما يخالف الشرع في الجباية، و يبالغون في ظلم الرعية، ولم يُرَ في أحواله ما يغمص عليه إلاّ هذا.

وأما ثناء الناس عليه فأكثر من هذا كله، وأهل الحجاز يرون أنهم تحت جناح العافية وفي ظل الأمان ما دام حيّاً، و يفدونه بآبائهم وأمهاتهم.

ونسأل الله أن يطيل بقاءه، و يشيد في الدارين بناءه، و يديم عزه لحماية حرمه الأمين) انتهى[1] .

---

(١) ج١ من ص١٩٩ إلى ص٢٠١.

الأمن في عهد الشريف زيد بن محسن

الأمن في عهد الشريف زيد بن محسن

وقد تحدث العياشي عن الأمن في هذه البلاد في مواضع، منها قوله : وقد شاهدنا في هذه الحضرة من العافية التي يبسطها الله في الطرق والقرى، والأمان التام ماقضينا منه العجب، فمن ذلك أنّا ألفينا عِيراً في ليل مظلم، تحمل أحمالاً من البزّ الهندي والقماش الرفيع نحو عشرين جملاً، وطلبنا أحداً من أصحابها نسأله عن خبر البلد فلم نجد معها أحداً، وذهبنا نحواً من ميل فوجدنا أصحابَها في قهوة مستريحين، وأخبرونا أنها لو ذهبت كذلك إلى مكة لم يتعرض لها أحد، وأخبرونا بعجائب من مثل ذلك وقعت في أيام زيد ووالده محسن، فمن ذلك أنهم زعموا أن رجلاً جاء للسلطان محسن فقال : إني وجدت بالبلاد الفلانية حملاً من البزِّ في الطريق. فقال له : ومن أخبرك بأنه البز فقال له : مَسَسْتُهُ برجلي. فأمر بقطع رجله وقال : لِمَ مَسَسْتَهُ برجلك؟! إلى غير ذلك من أمثال هذه الحكايات لا نعلم صحيحها من سقيمها. ومن لطيف ما شهدناه من أمان هذه الديار وعافيتها، أن المسافرين من مكة إلى جدة، أو من جدة إلى مكة يكترون الحمير للركوب ولايذهب صاحب الدابّة معها، فإذا ذهب المكتري إلى المحل الذي يذهب إليه أرسل الحمار، ولا عليه منه، فلا يأخذه أحد إلاّ ربّه إن كان في ذلك البلد أو نائبه، ولكل واحد من أصحاب الدواب نائب في غير البلد الذي هو فيه يعرف دابته ويقبضها حتى يكريها له ممن يرجع إلى البلد الذي هو فيه)(١). وقال أيضاً : وأعانهم ـ يعني الجمالين ـ على قطع المسافات، مابسط الله في تلك البلاد من العافية الوافية، فلا ترى لصّاً ولا سارقاً في ليل ولا نهار إلا في قرب من المدينة ـ كما تقدم ـ . وإنما تشتعل نار الحرية والسرقة في تلك البلاد أيام الموسم فقط، لاختلاط الناس واجتماع الأوباش من كل أوب. وقد عاينّا من الطمأنينة في الطريق والعافية والسكون في مسيرنا هذا ما قضينا منه العجب، لأنا ماكنا نسلك هذه البلاد إلاّ في أيام

---

(١) الرحلة ١٠٩/٢.

الموسم، ونعاين مايقع بها من النهب والسرقة والروعات المتوالية، فظننا أنها كذلك دائماً[1].

ومع ذلك فقد تحدث حوادث كثيرة، وقد يلاقي الحجاج من عنت الجمالين وأذاهم الكثير.

المكوس على الحجاج :

قال[2] ولما كان منتصف صفر دخل الركب العراقي المدينة المشرفة ونزلوا بركبهم شاميَّ سلْعٍ من غربيِّ ذباب إلى قريب من مساجد الفتح، وكنا نخرج بعض الأيام إلى مخيمهم قصد التفرج.

وتأخر في هذه السنة قدومهم إلى المدينة لبطئهم في الطريق كثيراً وذكر لي بعضهم أنهم أخذوا فيما بين مكة والمدينة نحواً من خمسة وأربعين يوماً، بسبب أداء المكوس الموظفة عليهم من قبل الأمراء فقد أدَّوْا من ذلك كثيراً. أخبرني بعضهم أن جملة ماأدّوا من المكوس من يوم خروجهم من بلادهم بأصبهان، يزيد على خمسين ديناراً ذهباً لكل رأس، والخمسون عندهم معدة لهذا، يُعِدُّوْنَها من بلادهم كل من خرج للحج فيهم يخرج زيادة على مايحتاج من النفقة والكراء خمسين ديناراً للمكوس التي تُؤخذ منهم في الطريق، فإن كانت المكوس التي تنوبهم الخمسين فأقل لم يتضرروا بذلك لاستعدادهم لها وإخراجهم بها مخرج الصدقة ومازاد على الخمسين استضروا به.

وقد أخذ منهم في هذه السنة عاملُ البصرة لما مروا بها ثلاثين ديناراً وذلك بأنهم لايأتي معهم من بلادهم عسكر يحميهم في الطريق من أعرابها ومحارسها.

إلى أن قال : ناهيك بما يقع لحجاج المغاربة عند دخولهم مصر وخروجهم منها، إلا أنهم لايأخذون إلاّ ممن معه تَجْرة، وعند الخروج من مصر لايأخذون إلا من أهل المغرب الأقصى وأهل السودان متعللين بأنه ليسوا من رعية السلطان....

---

(١) الرحلة ٩٣/٢.

(٢) الرحلة ج ١ ص(٢٧٩).

وقد ذكر بعض المؤرخين أنَّ مثل هذا كان يقع قبل هذا الزمان من أمراء مكة للحجاج المغاربة فيأخذون منهم قدراً معلوماً من المال على كل غنيٍّ وفقير ومن لم يكن له مال يدفع منه ذلك المقدار حُبِس حتى يفوته الحج، إلى أن قَيَّض الله لذلك بعض صالحي ملوك مصر فبعث إلى أمير مكة في إسقاط ذلك عن الحاج، وجعل له قدراً معلوماً عظيماً من الأموال يأتيه في كل سنة من مصر، فانقطعت تلك المحنة...

وَعِلَّةُ أمراء مكة في أخذ ذلك كالذين أسلفنا ذكرهم، فيقولون نحن حماة الحرم والذائبون عنه وعن الوافدين عليه، ولولا ذلك لاختطفهم ذئاب الأعراب، ولايقوم ذلك إلا بعساكر وحماة، ولاقيام لهم إلا بأموال، وبلاد الحجاز ضعيفة لايفي مايتحصل من خراجها بذلك، فلابُدَّ لنا من أموال نستعين بها على ذلك إما من سلاطين الأقطار، أو من رعاياهم إذا وصلت إلينا.

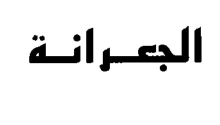
ولهذا لايأخذ سلطان مكة شيئاً من كل مايرد من الشام ومصر والمغرب لأنه وإن كان مستقلاً في مملكته، هو في الحقيقة عامل من عمال(الخاقان الأعظم) صاحب الروم، يأتيه من مصر من الأموال والأطعمة مايقوم بكفايته وكفاية عساكره.

أما أهل اليمن فأمراؤهم من الإمامية أقاربه في النسب بل والمذهب، وبينهم مواصلات كثيرة ومحاماة.

وأما الهند فلا يقدمون إلا في البحر وغالبهم تجار فيدفعون العشر بجدة، وإن قدم بعض كُبرائهم قاصداً الحج فقط، فإنه يستصحب معه من الهدايا والتحف ما يجلُّ وصفه.

وأخذ أمير مكة في هذه السنة من هؤلاء الأعجام أهل العراق أحد عشر ديناراً ذهباً لكل نفس، ستة لدخول مكة، وستة لدخول المدينة، وقد حبسهم عن المشي بعد الخروج من مكة إلى مَرِّ الظهران حتى أقاموا هناك نحواً من اثني عشر يوماً، بسبب بقية بقيتْ عليهم من الخراج، فلما وصلوا إلى بَدْر حبسهم أميرهم هناك أسبوعاً حتى أعطوا ثمانية دنانير أُخَرَ لكل نفسٍ، متعللاً بانقضاء الزاد

والعلوفة بسبب التعطيل المذكور، وهذا كله سوى مايعطونه للأعراب من يوم خروجهم من المدينة، وقد قدموا في هذه السنة بركب عظيم فيه داية الشاه وطبيبه وحاجبه أو وزيره، وعدة الذين أعطوا المكس من الأعجام سوى الأعراب والخدم ثمانية عشر مئة.


الجعرانة

الجعرانة

ذكرها من المواضع التي تزار فقال :(وهو موضع بين مكة والطائف، إلى مكة أقرب بكثير، بينها و بين مكة ١٨ ميلاً، ومنها كانت عمرة النبي صلى الله عليه وسلم في ذي القعدة حين قسم غنائم حنين كما في الصحيحين، وذكر المحب الطبريُّ عن الواقدي أنَّ إحرامه صلى الله عليه وسلم بالعمرة منها كان ليلة الأربعاء، لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة.قال المحبُّ الطبري : ومنها يحرم أهل مكة كل عام في ليلة سبع عشرة من ذي القعدة، وذلك خلاف ما ذكره الواقدي. ١هـ. قال الفاسيُّ في«شفاء الغرام» : وما ذكره الطبري يخالف ما أدركنا عليه أهل مكة، فإنهم يخرجون في اليوم السادس عشر من ذي القعدة و يقيمون اليوم السابع عشر بالجعرانة، و يصلون المغرب بها ليلة الثامن عشر ويحرمون و يتوجهون إلى مكة، وهو يلائم ماذكره الواقدي. قال الحطاب : وعلى ماذكره الفاسي أدركنا عمل أهل مكة، قلت : ولا أدري متى انقطع عمل أهل مكة هذا، فإنهم الآن لا يحرمون منها، ولا تكاد تجد أحداً يعلم أنها من مواقيت العمرة إلاّ من مارس كتب الفقه منهم، وأما العوام فلا يطلقون اسم العمرة إلاّ على التنعيم.

ومن أغرب ما وقع لنا في ذلك، أننا لمّا نزلنا بالمحصّب بعد تمام الحج في آخر سنة أربع وستين، بدا لنا أن نذهب من هناك إلى الجعرانة لنحرم منها بالعمرة، لأفضليتها على غيرها من الأماكن كما هو مقرر، فطلبنا من يهدينا الطريق إليها، وسألنا من هناك من الأعراب وأهل البلد، فقالوا : وما شأنكم بالجعرانة فذكرنا لهم الاعتمار، فاشتد نكيرهم وقالوا : ما نعلم أحداً يعتمر من هناك، وإنما العمرة من التنعيم، ولكنكم قوم مغاربة أهل حِيَلٍ، قد يكون قصدكم إخراج كنزٍ هناك، فَعَمّيْتُم قصدكم بذكر العمرة، وإلاّ فأيّ عمرة في الجعرانة؟ وما كادوا يصدقوننا في ذلك. فقلنا لهم : يذهب معنا أحدكم بأجرته و يشاهد ما نريد من ذلك. فاكترينا رجلاً منهم فأسرى بنا حتى اعتمرنا.

ولـمّـا كـان اعـتـمـاره صـلـى الله عـليه وسلم منها إنما هو في ذي القعدة في الـسـابع عشر أو الثامن عشر، توخينا ذلك في هذه السنة، إذ أمكننا بالمجاورة في مـكة هذه المدة، فخرجنا مع جماعة من أصحابنا ليلة الاثنين السابع عشر من ذي الـقـعـدة اغتناماً لفضيلة الوقت والمكان، فوصلناها بعدما ذهبت طائفة من الليل، وأنخنا إلى قريب من السَّحَر.

ومـكـانـهـا وادٍ أفـيـح كـثير الـعـضـاه، ومـاؤه شـديد الحلاوة غزير، وبها بئران عـظـيـمـتـان مـطـوّقـتـان بالحجر المنحوت، وعنده(؟) دوحات عظيمة، وعلى شفير الـوادي مـكـان مـسـجـد يـقـال : إن مـنه أحرم النبي صلى الله عليه وسلم، ومنه أحـرمـنـا بعد الاغتسال والركوع، وقفلنا إلى مكة ودخلناها ضحى، ومن فضائلها ماذكره الجندي عن ابن ماهك أنه أحرم منها بالعمرة ثلاثمائة نبيٍّ، ويقال : إن الـنـبـي صـلى الله عليه وسلم فحص موضع مائها بيده المباركة، فانبجس، فشرب منه وسقى الناس، ويقال : إنه غرز فيه رمحه فنبع [1].

(١) : ١ ــ ٢٢٦ و ٢ ــ ٢٨٠.

مدينة جدة كما وصفها العياشي

مدينة جدة كما وصفها العياشي

قال في ذكر الأمكنة التي زارها لما كان مُجاوراً في مكة المشرفة[١] :

ومنها مدينة جدة :

ولـمّـا كـان لي رغبة قوية في معرفة أرض الحجاز، ورؤية ما بها من البلاد غير الحرمين، عزمت على الوصول إلى مدينة جدة لزيارتها وزيارة مابها من المساجد والمشاهد، كالمحلّ الذي يقال : إن فيه قَبْرَ أُمِّنا حواء.

وممن جزم بأن قبر أم البشر حواء بجدة ابن خَلّكان في ترجمة ابن قلاقس الشاعر[٢] ، وذكره أيضاً في ترجمة أخرى، ولأنها في نفسها من أعظم البقاع، فقد ورد في فضلها وفضل المقام بها والرباط فيها عدة آثار نقلها الأخباريون.

فخرجت إلى زيارتها بعد صلاة العصر من يوم الجمعة العاشر من شوال(١٠٧٣هـ) مع طائفة من أصحابنا المجاورين، وأكرى لي شيخنا أبو مهديٍّ حماراً لركوبي.

وَلم أر أَسْرَع مشياً من حمير الحجاز، ولا أَوْطَأ مركباً، ولا أقلَّ تعباً، مع السرعة المفرطة في المشي، فلقد كنت أنظر وأنا راكب إلى أطرافي هل يتحرك منها شيء مع الإسراع في المشي، فلا تكاد تتبين لي حركة شيء منها، مع أن مركوبي ليس من أجاودها.

ولقد أخبرت أنه كان حمار عند رجل من أهل مكة يصلي المغرب بجدة،

فيركب عليه، ويصلى الصبح بمكة، وهي مسافة القصر تحقيقاً، وهم يتغالون في ثمن ما هذه صفته منها، فيبلغ الحمار مئة دينار ذهباً، ولقد رأيت حماراً عند فقيه

---

(١) الرحلة ج٢ ص١٠٤ ومابعدها.

(٢) نص كلام ابن خلكان في آخر ترجمة نصر بن قلاقس، ج٥ ص٣٨٩ ــ تحقيق الدكتور إحسان عباس ــ:(وبجدة قبر أم البشر حواء(ض) على مايقال، وقبرها هناك ظاهر يزار). فهو لم يجزم، بل قال :(على مايقال).

الحنفية الشيخ الزنجبيل(؟) رافقنا عليه من المدينة إلى مكة تقبحه[1] العين، فأخبرت أنه اشتراه بقريب من ذلك الثمن.

ولـمّا خرجنا من مكة عن الثنية السفلى إلى مناخ الحجاج أسفل ذِي طُوَى، عدلنا ذات اليسار قليلاً، وسلكنا في شعاب هناك وعقاب ليست بالوعرة.

وبين مكة وجدة ثمانية قهاوي، ينزل المارّون في كل قهوة، فيستريحون ويشربون القهوة أو الماء، ويشترون علفاً للدواب :

فأولها : قهوة في مقابلة التنعيم فيما أظن في شعب مررنا عليها قرب المغرب.
والثانية : في منفسح الوادي الذي يخرج منه إلى رمال الحديبية.
والثالثة : عند بئر الحديبية عند منتهى الحرم، ومنها يحرم الناس بالعمرة، من شاء منهم، وحول البئر مسجد معطل قد تهدم أكثره، وقد طلبنا من أهل القهوة حَبلاً ودَلْواً حتى استقينا منها وشربنا من مائها للبركة، لما ورد في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم برك عليها حتى غزر ماؤها أو تفل فيها.
والرابعة : في قرية تُسَمَّى حدّة قريبة من شفير الوادي الذي يأتي أصله من مَرِّ الظهران، وفيه أثل وعشب كثير، ومزارع إذا جاء السيل.
ثم الخامسة: حول مزرعة هناك كبيرة، يجلب منها بطيخ كثير إلى مكة مشهور عندهم بالجودة.
والسادسة :عندما يريد الذاهب الصعود إلى جبال يمر الطريق بوسطها.
والسابعة :عند منقطع الجبال حيث ينحدر الذاهب إلى مكة[2] .
والثامنة : جدة. وقد بلغنا إليها بعدما ارتفعت الشمس جداً، ومَتَعَ النهار، واشتد الحرّ. وهي مدينة كبيرة، ممتدة مع ساحل البحر نحو ميلين في كلا طرفيها، فيها حصار[3] متقن البناء، فيه مدافع كثيرة، وعسكره لايفارقه.

---

(١) كذا والصواب : تقتحمه.

(٢) كذا ويظهر أن الصواب(إلى جدة).

(٣) يقصد بالحصار القلعة ــ الحصن.

وقد رأيت في الحصار الغربي منها ما يستغرب وصفه من المدافع طولاً وكبَراً، ورأيت فيها مدفعاً له خمسة أفواه، بصنعة غريبة.

وفي مرساها سفن كثيرة كبار وصغار، وغالبها معمول بالشَّريط بصنعة عجيبة ليس فيها مسمار، وهي مع ذلك كبيرة المقدار، متباينة الأقطار، واسعة الأنحاء، تحمل أضعاف ما يحمل غيرها من السفن.

وأسواق البلد ممتدة مع جانب البحر، وغالبها أخصاص واسعة، مفتحة إلى البحر وإلى ناحية البلد، فيها قهاوي ومجالس حسنة، يبالغ أصحابها في كنسها وتنظيفها، ورشِّها بالماء، وفيها جلوس غالب أهل البلد، وقد اتخذوا فيها أسِرَّة كثيرة، منسوجة بشريط المَسَدِ[1] وبصنعة محكمة. وكان نزولنا بوكالة هناك قريبة للمسجد، فإذا كان الليل خرجنا إلى جانب البحر، واكترينا لكل واحد سريراً يرقد عليه بدرهم إلى الصباح

ومسجدها الكبير من أجلِّ المساجد، فيه أعمدة من الساج، مخروطة على هيئة أعمدة الرخام المخروط، صليب عودها، يحسبها من لم يتأملها رخاماً أحمر، وأخبرني شيخنا أبو مهدي أنه يقال : إن أعمدة ذلك المسجد جُلبت في صدر الإسلام من كنيسة بأرض الحبشة عندما افتتحها المسلمون.

وزرنا المحل الذي يقال إن فيه قبر أمنا حواء في مقبرة معلم عليها بحجارة سود، عند رأس القبر وعند رجليه وفي وسطه، وقد ذرعه بعض أصحابنا فكان قريباً من ثلاث مئة ذراع، والله أعلم بصحة ذلك.

ولم أرَ فيها من الأفاضل إلا مفتي الشافعية الشيخ عبدالقادر، وليس عنده من العلم والرواية ما يُرْغَب في أخذه، وهو رجل حسن الأخلاق جالسته ساعة.

ولقيت أيضاً مفتي الحنفية الشيخ مصطفى، وهورجل له مشاركة في العلوم، سالك على طريق السادة(النقشبندية)[2] . وله خبرة بكلام القوم، وفيه سخاء

---

(١) المسد : الليف، ولعله يقصد الخوص، فقد أدركنا الأسرة(الكراسي الطويلة) تصنع منه.

(٢) النقشبندية ــ وغيرها من الطرق الصوفية ــ ماوافق طريقة المصطفى ــ عليه الصلاة والسلام ــ وطريقة أصحابه، فهو حَقٌّ، وما خالف تلك الطريقة فهو باطل ــ كما ورد في الحديث في وَصْفِ الفرقة الناجية :«من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي».

ومروءة، دعانا إلى داره، وأطعمنا وسقانا، وحصلت بيني وبينه إلفة ومودة وأخوة في الله. وكتبت له أبياتا منها :

أشـــهـــد الله، وأمـــلاك الـــسما
وجـمـــيـــع الـــرســـل، طـــرّاً وكـــفـــى

أنـــنـــي أحـــبـــبـــت فـــي الله أخـــي
وخـــلـــيـــلـــي وحـــبـــيـــبـــي(مـــصـــطـــفـــى)

جمـــع الـــديـــن إلـــى الـــدنـــيـــا، مـــعـــاً
وحـــوى مـــن كـــل خير طـــرفـــا

أســـأل الله وفـــاءً بـــالـــذي
قـــد عـــقـــدنـــا، فـــهـــو يجـــزي مـــن وفـــى

وممـن ينـتحـل الأدب من أهل جدة، وهو معدود من فضلائها، الشيخ محمد مُخْبر، ولم يـتيسر لي لقاؤه، وكتبت له بيتين مُوَرِّيًا بلقبه، لأنا أقمنا بجدة ثلاثاً، ننتظر سفناً ترد من مصر بأخبار المغرب وهما :

يـــذكـــرنـــي بـــالـــثـــغـــر بَـــرْدُ نـــســـيـــمـــه
بـــلادي، فـــعـــيـــشـــي نـــاعـــم مـــتـــكـــرر

فـــقـــال خـــلـــيـــلـــي : عَـــلِّلِ الـــنـــفـــس واصطبرْ
عـــســـى فـــرج يـــأتـــي بـــه لـــك(مُـــخْـــبِـــرُ)

ومـن نـظـمـه قـصـيـدة فـي مدح النبي صلى الله عليه وسلم وذكر فيها أعلام المـدينة المشرفة للزيارة الرجبية، ونحن إذ ذاك بها، وبينما أنا ذات غداة بعد صلاة الـصـبـح جالس في المواجهة لوردي من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، إذ سـمـعـت شـخـصـاً يـنـشد بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم بصوت مطرب قـصـيـدة بـائـيـة، فـقـطـع عـليّ حسن صوته وحلاوة مقاطعه، ورونق كلامِه تَمَامَ وِرْدِي، فـاسـتـمـعت له حتى فرغ من إنشاده، ثم بعد ذلك سألت عنه فقيل لي : إنه من أصحاب الشيخ محمد مُخبر، والقصيدة لشيخه، فبعثت من كتبها من عنده

ولم يمكن لقاؤه لضيق الوقت. ولنذكر القصيدة بجملتها :

مَثِّلْ لعينيك داراً شَامَ نَجْدِ قُبَبا
من الحرير عليه حلة وقبَبا

لو قابل الشمس نوراً وهي قابلة
ضحى أو البدر في أفق السما وقبا

وحجرة حَجَّ روحي حِجْرَ كعبتها
ووقفتي وقفة في بابها أدبا

وقبة قبة الجوزاء تغبطها
وسدرة المنتهى تعنو لها أدبا

والكوكب الأنور الدرِّي تمثله
جهراً، فما قط عن قلب المحب خبا

وروضة روضة الفردوس لو نطقت
قالتْ : بَخٍ لكِ حُزتِ القرب والقربا

ثم أوردها وهي ٧٦ بيتاً، وقال بعد إيرادها :

وهذه القصيدة كما ترى فيها أبيات سلسة منسجمة. وفي بعضها ركاكة وتعقيد، وشبه تصحيف، ولا أدري هل ذلك من أصلها أو من تصحيف الكاتب، إذْ لم آخذها عن منشئها، وقد ذكر في آخرها أنه عارض بها قصيدة أولها:

مَثِّلْ لعينيك خِدْراً في الْحِمَى ضُرِبا

بسؤال صاحبه الشيخ عبدالرحيم البرعي ــ أثابه الله على قصده الصالح، وجعلها من سعيه الناجح.

وخرجنا من جدة قافلين إلى مكة بعد صلاة الظهر، من يوم الثلاثاء، وسرنا على طريقنا الأولى، ننيخ بالقهاوي المذكورة للاستراحة.

ودخلنا مكة مع أذان الصبح، وأدركنا الصلاة بالمسجد الحرام(١).

---

(١) «الرحلة العياشية» ج٢ من صفحة ١٠٤ إلى صفحة ١٠٩.


بلدة الطائف كما وصفها العياشي

بلدة الطائف كما وصفها العياشي في القرن الحادي عشر

وقال العياشي ـــ بعد كلامه على(الجعرانة)[1]

ومن الأماكن التي ينبغي للمجاور أن لايهمل زيارتها بلد الطائف[2] فإنَّ فيها مزارات كثيرة، وقد خرجنا إليها بعد العشاء الأخير على طريق الحاج إلى منى ثم مزدلفة، ثم إلى بسيط عرفة ليلة الثلاثاء التاسع عشر من ذي القعدة سنة(١٠٧٣) مع جماعة من أصحابنا في رفقة من أهل مكة والطائف، ومررنا على طريق الحاج إلى منى ثم تركنا الموقف شمالاً، وأنخنا هناك في قهوة قريباً من نصف الليل، والطريق من مكة إلى الطائف فيها قهاوي يستريح المارُّ بالنزول فيها، واشتراء المحتاج من طعام وعلف، كما ذلك في طريق جدة أيضاً.

ثم ارتحلنا من هناك قرب طلوع الفجر، وسلكنا مع طريق الساقية[3] التي تأتي من أصل الجبل إلى عرفات ثم إلى المشاعر، ثم إلى مكة، ومنها تأتي المياه إلى مكة في هذه الأزمنة بعد اندثار الأخرى التي تأتي من الجعرانة، وقد ذكر المؤرخون أخبار العينين معاً، وأن التي من الجعرانة من عمل بني أمية، وهذه من عمل بني العباس، وهي من صدقات زبيدة بنت جعفر المنصور، إلا أنها ما وصلت إلى مكة إلا في دولة بني عثمان، ملوك العصر من التركمان، وقد شاهدنا في بنيان هذه الساقية ما يدل على فخامة ملكهم، وقوة اعتنائهم بأمر الحرمين. فكلما مررنا غلوة أو غلوتين وجدنا عيناً منها مفتوحاً، عليها بناء وثيق، ووجدنا الفعلة في وقتنا جَادِّيْنَ في إصلاح ماوَهَى من بنائها، وكَنْسِ ما تَهَوَّر من أرجائها، وهي صاعدة مع وادي نَعْمَان الأراك، الذي أكثر شعراء العرب فن

(١) الرحلة ج٢ ص١١٦ ومابعدها.

(٢) في الأصل :(أن يهمل) خطأ.

(٣) يقصد العين.

بعدهم من ذكره، وهو واد عظيم أفيح، منحدر من جبل نجد[١] ، به أدواح يانعة، يصافحها نسيم نجد فتهتز أغصانها طرباً، وتميل إلى أن تلثم أفواه الأزهار الغضة الناعمة الملتفة بحافتي ذلك الوادي. وقد كساه الخصب من مُرُوط الزهر ألواناً، وعمَّم رؤوس هضابه أقاحاً وأرجواناً، فلم نزل نسايره صاعدين إلى أن قربنا من جبل أكرا[٢] فعدلنا يميناً مع بعض تلك الهضاب، وآوانا الحرّ إلى قهوة بأصل الجبل بين صخور عظام، حولها ماء صاف يجري على حصباء كالزبرجد، عذب بارد، سهل التناول للصادر والوارد، ما رأينا فيما سلكنا من بلاد الحجاز مكاناً أشبه ببلادنا منه، فلما زالت الشمس وتوضأنا للصلاة أخذنا في صعود الجبل العظيم الذي لا يماثله في عظمته جبل من جبال تهامة، وسلكنا في طُرُق تميل مع خراطيمه الهابطة من أعلاه، وغالب الطريق في هذا الجبل قد نقي من الصخور العظام، ونضدت الحجارة فيه، ببناء وثيق على ممره، ويقال : إنَّ ذلك من عمل بني العباس لكثرة اعتنائهم ببلد الطائف ونزول ولاة الحجاز منهم به، وقد أثَّرت السيول مع طول العهد في أماكن كثيرة من هذا الجبل فخربت بناءه، وكثرت للسالك عناءه، ووجدنا في هذا الجبل أشجاراً عظيمة من العرعر وغيره من أشجار بلدنا، فأنسنا بذلك غاية، ورأينا القرود به تَصِيح، وتثب في أعالي تلك الصخور، فتعجبنا من ذلك، فأخبرنا أنها توجد في هذا الجبل،وما سمعنا قط أنها بأرض الحجاز، وإنما يقال إنها تجلب من الشام والروم إلى مصر والحجاز.

ولقد لقينا في صعود هذا الجبل مشقة ونزلنا عن الدواب، وأرجلتنا أوعاره وأغواره كُرْهَاً، وما كدنا نصل أعلاه حتى تمكن وقت المغرب وصلينا، وتلفعنا بثيابنا لشدة البرد، وتعجبنا من صنع الله وبديع قدرته، فقد قاسينا أول النهار من شدة الحر وسمومه ما كادت العظام منه تذوب وتتفطر القلوب. وكابدنا من شدة البرد آخره ما ارتعدت المفاصل منه، وكَلَّتِ القوى عنه. ثم وصلنا إلى قهوة هناك ونزلنا بعد العشاء، وطلبنا خِصَّاً يُكِنُّنا من شدة البرد، فأدخلونا محلاً، فأوقدوا فيه

---

(١) الصواب(السراة) واسم«نَجْد» هنا يطلق على طريق في تلك الجهة(كرا)، فوضع بين الوجه وأم لج. وهو مفيض سيول أودية المدينة في البحر.

(٢) كذا في الرحلتين«العياشية» و«الناصرية» والصواب(كرا).

ناراً عظيمة فاصطلينا بها عامة ليلنا، وحمدنا الله على ذلك. وكان في إبَّانِ الحر الشديد، ولذلك خلفنا ثيابنا بمكة، ولم نلبس منها إلا ما يوافق الوقت، وقضينا عجباً من شدة الحرّ والبرد معاً في المكانين المتقاربين.

ثم ارتحلنا من ذلك المكان قرب صلاة الصبح وهبطنا عقبة هناك هي دون التي طلعناها بكثير إلا إنها وعرة، وسلكنا في شعاب ذات مياه غزيرة .. ونَبْتٍ ملتف، إلى أن خرجنا على قرن الثعالب[1] الذي هو ميقات أهل نجد، وبإزائه قرية ذات مزارع وأشجار من أنواع الفواكه، حولها واد يسيل ماؤه، وتجاوزناها قرب الطلوع، وسلكنا بين تلول هناك في صعود وهبوط واستواء إلى أن وصلنا بلد الطائف وهي قصور في مستوى من الأرض، تحيطها جنات من نخيل قليل، وأعناب كثيرة، وفواكه مما يشتهون.

وقصدنا المسجد الأعظم. فأول من لقيناه على بابه رئيس المقرئين، وأستاذ المجوِّدين، الذي لايشاركه في تحقيق فَنِّ القراءة بأرض الحجاز غيره، ولا يجهل عند الخاص والعام من أهل تلك الديار أمره، الشيخ عبدالعزيز بن حسن بن عيسى التواتي ــ رضي الله عنه ــ ولم نكن نعرفه قبل ذلك، ولا يعرفنا إلا بالخبر، وإنما عرف كلاً منا بصاحبه السيدُ الأجلّ الفقيه الأمثل، السيد عمر المدني، من متفقهة أهل المدينة، تعرفنا به فيها، فوجدناه جالساً مع الشيخ المذكور، عند باب المسجد، فرحَّب بنا الشيخ غاية، وأظهر لنا من بشره النهاية، وطلب منا النزول عنده في داره، وأقسم على ذلك جهد يمينه، وبذل من القِرَى المستطاع من ملك يمينه، فدخل معنا إلى المسجد، ووصل معنا إلى محل الزيارة، فزرنا وصلينا في المسجد، ثم ذهبنا إلى المنزل، وأنزلنا في أطيب مكان فيه، وأدخل أمتعتنا ودوابنا.

فلما استقر بنا المجلس، وخرج عنا في بعض شؤونه قلنا لصاحب لنا : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً. فخرج إلى السوق واشترى لنا ما يصلح

---

(١) هنا خلط بين قرن الثعالب وقرن المنازل، فالأول جبل مُطِلٌّ على عرفات وليس بمحل الإحرام، وأما الثاني فقرن المنازل وهو مايعرف الآن باسم(السيل). والمؤلف يقصد وادي(قَرْن) وهو أعلى وادي قَرْن المنازل (السيل الكبير)، وقرن هذا ــ ويسمى قرن المحرم ــ محل إحرام المارّين به.

للوقت، فلما وضعه بين أيدينا دخل علينا الشيخ، وقد رآه حين دخل وهو يقول : واعيباه!! واعيباه!! يكررها. وهي لغة أهل البلد ــ كيف تشترون الطعام وأنتم في منزلي؟! ولكن الذنب مني إذ أبطأتُ عليكم بالقِرى، فاعذروني، وما كنت مشتغلاً إلا في ذلك، فأخجلنا واعتذرنا له فلم نبرح من مكاننا حتى أتى بالغداء، فأكلنا واسترحنا.

ولقد أجزل لنا القِرى مدة الإقامة فجزاه الله خيراً. إلا أنه لما بلغ خبر قدومنا إلى جواد زمانه، وحاتم أوانه، وجُنَيْد عصره، وغوث قطره، السيد عبدالرحمن المكناسي ــ وكان إذ ذاك بالطائف ــ بعث إليه بعض خدامه بالمحتاج إليه من طعام وإدام ولحم ونحو ذلك، وقال له : إنما علينا قراهم لاعليك إلا أنهم لما نزلوا في منزلك لم يمكنا إخراجهم من عندك، فعليك المنزل وعلينا النُّزُلُ والْقِرى، ولم يزل يتعاهده بأمثال ذلك إلى أن خرجنا.

ولما كان الغد ذهبنا لزيارة السيد عبدالرحمن في منزله، وكان بأعلى البلد، فدخلنا عليه وبالغ في الترحيب والتحفِّي، وهشَّ وبشَّ، وسأل عن الحال وأظهر السرور بقدومنا، وكنا لقيناه بمنزله بمكة يوم دخولنا أو غده، وهو مُتَهَيِّءٌ للخروج إلى الطائف في يوم لقائنا له، ووجدنا ركائبه ببابه، وآلَةُ السفر بين يديه، فلم تطل مجالستنا له، واعتذر لنا عن ذلك، وأخبرنا أنَّ الخروج في ذلك الوقت لم يكن باختياره، وأنه لِوَاردٍ قهريٍّ، وكان اتخذ ذلك عادة له منذ أعوام كثيرة، إذا أقبل رمضان وقرب خرج إلى الطائف، وكثيراً ما يستهلُّ له رمضان في الطريق، لأنه كان يسير سيراً رفيقاً، وربما أقام، وربما أفطر بعض أصحابه يوماً أو يومين في الطريق لأجل السفر، فاتخذ الجهال والحسدةُ له ذلك ذريعة، وتطرقوا منه إلى الوقوع في عرضه، والاتهام له في دينه، وقالوا : إنه إباحي، وما جعل السفر في هذا الوقت ديدنه إلا ليتوصل به إلى الأكل في نهار رمضان، وإلا فأيُّ ضرورة تلجئه إلى الخروج في هذا الوقت كل سنة... إلى غير ذلك مما يلقيه الشيطان إلى أوليائه من شياطين الإنس والجن(يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً) سنة الله في أنبيائه وفي أوليائه بالإرث، إذ جعل الله لكل نبي عدواً من المجرمين. وكذلك وليّ، على مانصّ عليه غير واحد، على أن هذا الشيخ ممن ظهرت شواهد صدقه في حاله، واشتهرت كرامته، وعلمت ديانته، فينبغي

التسليم له، سيّما في الأمور التي لا تصادم الشريعة كهذا، وقد أخبرني(ض) ببعض حاله في سفره هذا، وكأنه توهم أني سمعت شيئاً مما يقوله الناس في ذلك وقال لي : والله ماكنت أخرج من هذا البلد مع غلبة الحال(؟) وقوة الوارد حتى أسمع النداء : ياعبدالرحمن الاّ تخرج تخاف على إيمانك!! فأخرج حينئذ خوفاً على نفسي.

ـــ ثم أطال في الاعتذار عنه بتعليلات صوفية ـــ

وقال : وأحوال هذا الشيخ في الوجود غريبة، وأعظم شاهد على صدقه في حاله زهده في الدنيا، مع كثرة ما يجبى إليه منها، فلا يبالي من أخذها من يده من غني وفقير، ومأمور وأمير، ورفع همته عن الخلق سيما أرباب الدولة، فإنهم لايُرَوْنَ في مكان أذلَّ منهم في بابه. ولقد كنا عنده في منزله في الطائف فاستأذن عليه السيد حسن بن زيد، أحد أولاد السلطان زيد، فَلأْياً بِلأْيٍ ما أذن له، وعند دخوله لم يقم له، ولا اهتبل له، وغاية ما قال له ـــ كالمعتذر عن تأخير الإذن ـــ : إنا اشتغلنا بهؤلاء السادات، وما هم دونك في المكانة عندنا، وإنْ كان لك حق الشرف، فلهم حقّ النسبة إلى الله، وطلب العلم، والغربة أو نحو من هذا الكلام، ولم يأنف ذلك الشريف من هذا الكلام مع ماهو فيه من حداثة السّن ونخوة الملك والشرف بل ألاَنَ الكلام بين يديه، وتلطف. وذلك شأن هذا الشيخ مع أرباب الدول، وأهل المناصب الدنيوية، وسنذكر بقية أخباره عند ذكر من لقيناه بمكة من أهل الفضل.

ولم نلق بالطائف أحداً ممن ينتسب إلى علم أو صلاح، سوى الشيخ عبدالعزيز الذي نزلنا عنده، وأصله من المغرب من بلاد(اوكرت)[1] من بلاد(تيجوران) وشهرته بالتواتي، وقد جال في المغرب وقرأ على كثير من علمائه كسيّدي الصغير ابن المنيار التادلي، ودخل فاساً وقرأ على سيدي عبدالواحد بن عاشر وعلى غيره، ثم ارتحل إلى المشرق قديماً بعد الأربعين وألف، ودخل القاهرة، وأتقن القراءة على مقرئها الشيخ سلطان، وختم عليه إحدى عشرة ختمة، وأجازه بالقراءات السبع، بل وبالعشر وكتب له خطه بذلك، ثم انتقل

(١) الكاف فوقها ثلاث نقط إشارة إلى أنها تنطق بين القاف والكاف والغين.

إلى الحجاز وحج، ثم استوطن الطائف منذ أعوام كثيرة، وتزوج امرأة من أهله، ورزق منها عدة أولاد، وله عند أهلها مكانة. يحج كل سنة ويحضر الموسم.

ـ ثم ذكر أنه سمع منه المسلسل بسورة الصف، وقرأ عليه من أول الفاتحة إلى قوله تعالى :(مثلهم كمثل الذي استوقد نار اً) بقراءة نافع وأنه أجازه وأورد نص الإجازة ونص سند المسلسل ـ.

وقال : وأما الأماكن التي تزار في بلد الطائف :

١ ـ فمنها البلد نفسه فقد وردت آثار تدل على فضله، وأنه منقول من الأرض المقدسة، نقله جبريل عليه السلام. وورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم حرّم عِضَاه وَجٍّ، وهو الطائف، وهو عند الشافعية كحرم مكة لايقطع شجره، وكفاه هذا فضيلة شارك فيها الحرمين الشريفين.

٢ ـ قبر عبدالله بن عباس رضي الله عنهما في قبلة المسجد من يمناه، عليه بناء فخم، وحوله على يمين الداخل من الباب قبر محمد بن الحنفية، وبإزاء قبر ابن عباس قبر يقال إنه قبر عبدالله الطيب الطاهر، ولد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

٣ ـ المسجد الأعظم في محل نزول عسكر النبي صلى الله عليه وسلم عند محاصرة ثقيف، وفي صحن المسجد مسجد يقال إنه منزل النبي صلى الله عليه وسلم في الحصار المذكور، وفيه محل يقال : إنه محل قبة أم المؤمنين أم سلمة وقبة أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنهما ـ وخبر حضورهما معه صلى الله عليه وسلم وأنه اتخذ لكل واحدة قبة، ومصلاه بين القبتين مذكور في السير.

وآثار حصن ثقيف الذي انحازت إليه بعد الهزيمة وحوصروا فيه باقية إلى اليوم.

٤ ـ أثر ظلف الغزالة، يقولون إنها أثر غزالة جاءت النبي صلى الله عليه وسلم وسلمت عليه في ذلك المحل، ولم نر لذلك ذكراً في شيء من كتب السير وأخبار معجزاته صلى الله عليه وسلم.

٥ ــ مسجد على شفير الوادي بأعلى البلد، فيه شجرة كبيرة أظنها سدراً، لها أصلان متقاربان بينهما تمر الشاة، يقال إنها الشجرة التي اعترضت للنبي صلى الله عليه وسلم في طريق له فأنشقت شقين، حتى مر بينهما لئلا تعنته فيمر يميناً أو شمالاً، وخبرها مذكور في بعض الأحاديث. ولم أر من ذكر أنها في هذا المحل، ولا أنها باقية إلى هذا العهد، وأظن أنَّ حديثها مذكور في «معجم الطبراني الصغير».

٦ ــ وهناك مسجد آخر على شفير الوادي قريب من هذا يزار أيضاً. ولا أذكر شيئاً من خبره.

وفي هذا البلد أسواق حافلة، يحضرها الناس من أطراف نجد، ويجلب إليها من الحبوب والثمار والزبيب والعسل ماقضينا العجب من كثرته، بحيث يخيل إلينا أننا لم نر مثل ذلك في الكثرة من الأسواق العظيمة.

ولم تطل إقامتنا في هذا البلد لقرب زمان الموسم، ولأنَّا وجدنا به مرضاً كثيراً فاشياً في أهله، وأخبرونا أن ذلك شأنه في السنة التي تكثر فيها أمطارها كهذه السنة، وإنما كانت إقامتنا فيه بقية يوم الأربعاء و يوم الخميس و يوم الجمعة.

وخرجنا منه ليلة السبت قريباً من نصف الليل على طريقنا التي مررنا عليها ذهاباً، ووصلنا قرن الثعالب الذي هو ميقات أهل نجد[1] بعد طلوع الفجر، ونزلنا حتى توضأنا وصلينا، وأحرمت من هناك بعمرة ولم اغتسل للإحرام لبرد الماء والهواء، بل اقتصرت على الوضوء.

ثم صلينا الصبح في الميقات، وذهبنا ومررنا على القهوة التي بتنا بها قبلُ عند طلوع الشمس، وانحدرنا مع العقبة الكؤود عقبة أكرى[2] المتقدم ذكرها، وتعجبنا من صعود إبل أهل ذلك البلد فيها، وهبوطها بأحمال الفاكهة الثقيلة، مع

---

(١) هذا قَرْنُ المحرم وليس قرن الثعالب فذلك جبل مشرف على عرفات، وقرن هذا أعلى قرن المنازل المعروف الآن باسم(السيل) الذي هو ميقات أهل نجد

(٢) الصواب : كرا.

كثرة الأوعار، ومضايق الصخور الكبار، مع الأحجار المعترضة فيها، المشرفة على المهاوي البعيدة، وما وصلنا إلى القهوة التي بسفح الجبل حتى اشتد النهار، وحمي وطيس الهجير، فاتقينا بأخصاصها وهج الظهيرة إلى أن فاء الفيء، فأثرنا الركب، وعالجنا بقية الحر في التلَوِّي مع أطراف تلك الشعاب، وما وصلنا وادي نَعْمان الأراك إلا بعد العصر، وسايرناه مع العشي مسايرة الخل الرقيق، والخدن العشيق، نكرع من عيونه المترعة التي هي من أصل الساقية المتقدم ذكرها، إلى أن وصلنا إلى القهوة التي هى على حَدِّ بسيط عرفات بين العشائين، ونزلنا بها في أرغد عيش، حول عين من الساقية تجري على وجه الأرض، وصلينا صلاة العشاء، وتعشينا ثم أغفينا إغفاءة، ثم ارتحلنا قريباً من ثلث الليل الآخر، ومررنا بنمرة، ثم بالمأزمين، ثم بِجَمْعٍ، ثم ببطن مُحَسِّرٍ، كل ذلك ليلاً، فطلع الفجر ونحن بِمنى، فدخلت مسجد الخيف، وصليت فيه الصبح، وليس به داع ولا مجيب. وقد كان في وقت الموسم ربما لايجد الإنسان أن يضع جبهته من الأرض أحياناً لكثرة الزحام.

وتأملت بسيط منى وشعابه، وتبيَّنت سعتها وامتدادها وكانت في أيام الموسم ربما يخيل إلى الناظر ضيقها لكثرة الخلق.

ومن رأى منى وما حولها من الأماكن في غير أيام الموسم علم حسن تشبيه من قال : من أراد أن ينظر إلى الدنيا بعد انقراض أهلها فلينظر إلى منزل الركب بعد ارتحاله.

ثم دخلنا مكة ضحى يوم الأحد، وأحللت من عمرتي، ووجدنا مكة قد غصت بسكانها، والوفود ترد عليها من كل أوب. ولله المنّة[1] .

(١) «الرحلة العياشية» جـ٢ من ص١١٦ إلى ص١٢٥.

في الطريق إلى المدينة المنورة

في الطريق إلى المدينة المنورة

المكارون من عرب الحجاز :قال : واكترينا من عند أناس من عرب الحجاز، ليس لهم دين ولا مروءة، كلما عقدنا معهم عَقْداً، حلوه، وأبرمنا أمراً نقضوه، طلباً لزيادة في الكراء، إلاّ بعد شدّ الأحمال على الجمال.

عنزة في طريق المدينة :وقال : ولما ارتحلنا من جديدة جدوا في السير، وساروا سيراً حثيثاً. ونزلنا قبور الشهداء عند طلوع الشمس، ثم ارتحلنا من هناك قبل الظهر، وساقوا سوقاً عنيفاً، وكانوا يتخوفون عادية من لصوص عَنَزَة في تلك المسافة، وما غابت الشمس حتى دنونا من جبل مفرح.(١)

وكان معنا في القافلة شيخ حرم المدينة، تجدّد في تلك السنة، وقدم من اصطنبول، وعزل الذي كان قبله، فقدم مكة أوّلاً وحجَّ، ثم سار إلى المدينة، وعندما وصلنا السبيل الذي هناك وجدنا طائفة من عسكر المدينة جاءوا يتلقونه، فأمن الناس واطمأنت قلوبهم، وخرج شيخ الحرم من محفّته ولبس أحسن ثيابه، وركب فرسه وسرنا سيراً حثيثاً فوصلنا ذا الحليفة نصف الليل(٢) .

وقال أيضاً :(وكان المحل ــ من ذي الحليفة إلى الفريش، محلّ خوف، لأن تلك المسافة يطرقها لصوص عنزة، وهو في درك بني سالم ومنازلهم بعيدة عنها، وصاحبنا المكارى من بني سالم فطار قلبه خوفاً من عنزة، ولم نزل نسير رويداً طول الليل إلى أن وجدنا أول القافلة ببطحاء الفريش)(٣) .

العرب والركب الشامي :قال :(ثم خرج الركب الشامي من المدينة على وجل عظيم من العرب الذين يمرون بهم في طريقهم، وقد كانوا قد أوقعوا

---

(١) : «العياشية» ٢ /٢٨٥.

(٢) : «العياشية» ٢ /٢٨٦.

(٣) : «العياشية» ١ /٦٢.

بالركب وقعة شنيعة في ذهابهم(؟) قرب تبوك وأخذوا مئتين من إبل الركب، وأموالاً لاتحصى، وقتلوا أقواماً. وسبب ذلك أنه كانت لهم إتاوة على الركب في كل سنة، يأخذونها من أميرهم، كما هو شأن أرباب الدرك في كل طريق، يعطونها من بيت المال، وفي هذه السنة عُزل الأمير الذي كان يأتي بالركب كل سنة، واستبدل به غيره ممن لايعرف حال الطريق وأعرابها، فلما جاءته شيوخ العرب أرباب الدرك لأخذ ما كان لهم عادة من عند السلطنة منعهم من ذلك، وأغلظ لهم في القول، وظن أن قوة عسكره تحميه منهم، ولم يعلم أن من قبله من الأمراء ماتحملوا لهم بذلك إلا لعجزهم عن مقاومتهم، فراجعوه في ذلك، وناشدوه فصمّم على الامتناع، فلما أيسوا منه شنّوا الغارة على الركب فدافعهم قليلاً فانهزم، فنهبوا من الركب شيئاً كثيراً، فلما رجع لم يخرج من المدينة حتى بعث نجيباً إلى الشام ليأتيه المدد، وواعدهم موضعاً معروفاً في الطريق، ومع ذلك التزم للأعراب بأزيد مما هو عادتهم، فسلم الله تعالى الركب بسبب ذلك)(١) .

الجهل والفقر هما أصل الداء :لاشك أن كثيراً من الأمراض الاجتماعية في كل أمة وفي كل زمان ومكان، إنما تنشأ عن الجهل وعن الفقر، وهكذا كانت حالة أبناء البادية في عصر الرحالة العياشي، كما وصفها، وكما هو معروف. قال في كلامه على المدينة المنورة، أثناء الزيارة الرجبية :(وَفَدَ خلق كثير من الأعراب، وأكثرهم عرب جفاة ليس لهم من دين ولا مذهب، جلهم لايعرف صلاة وصوماً، فتدخل جماعة منهم المسجد غاسلين أطرافهم يريدون الصلاة على زعمهم، فيقف أحدهم مليّاً ثم يسجد على قدر ما يرى، إما ثمان سجدات أو عشر سجدات أو أكثر على حسب نشاطه ثم ينصرف، وغالبهم على هذا الوصف، ومنهم أفراد يدينون بدين الحق، وسلامهم على النبي صلى الله عليه وسلم : حيّا الله مَحَمد. رافعين بها أصواتهم..

وأخبرني شيخنا المُلاّ إبراهيم عن الشيخ القشاشي أنه بينما هو ذات يوم عند المواجهة، إذ جاء أعرابي في شملته، وبيده عصاه، حتى وقف أمام الوجه الشريف، فضرب بعصاه الأرض مرتين وهو يقول : يامحمد يامحمد لا تقل أنا ما جئتك، ها أنا، وذهب ولم يزد على ذلك.

---

(١) : «العياشية» ١ /٢٤٦.

وكان الشيخ يقول : عسى أن يكون ذلك نافعاً له عند الله فإن ذلك مبلغ علمه....

وبالجملة فعرب الدرب والحجاز وتهامة ونجد أجهل العرب، وأكثرهم جفاء، قلّما تجد أحدهم يحسن رسوم الشريعة الظاهرة من صلاة وصيام إلا القليل.

وعوام الأعراب والبربر بمغربنا بالنسبة إلى هؤلاء، فقهاء، فلا تجد عامّيّاً بالمغرب وإن بلغ الغاية في الجفاء إلا وهو يعلم أن الصلاة ذات ركوع وسجود وإن كان لايحسن أن يقرأ فيها، ويعلم وجوب صوم رمضان، بل هو أشد عندهم من الصلاة بخلاف هؤلاء، فقد أخبرني مخبر عن عرب الدرب أنه سأل بعضهم هل صام أم لا؟ وهو رجل كبير كهل، فقال : إني إلى الآن لم أصُمْ، لكن أبي صام ثلاثة أيام. فاستفهمه عن ذلك فقال : إن الرجل عندنا إذا قارب أوان الهرم والشيخوخة صام ثلاثة أيام، فيقولون فلان صام، وذلك علامة بلوغه حدّ الكبر، وأما قبل ذلك فلا يعرف صياماً ولا غيره، وهم جديرون بذلك لبعدهم من الأمصار، وقلة القرى في بلادهم، فلا يجدون أحداً يعلمهم الخير ولا يرشدهم إليه، وعلى تقدير دخولهم الأمصار في بعض الأحيان فلا يلقي إليهم أحد بالاً، ولو رآهم أكبر فقهاء الأمصار يصلون الصلاة المتقدمة من تتابع السجدات لا يزيد على أن يضحك منهم، أو يتغافل ويذهب عنهم، فمتى يعرف هؤلاء صلاة أو صياما أحَداً من حدود الشريعة؟.

ولقد رأيت رجلاً بالينبع ظهر الشيب في مفرقه، وسألته عن مكة فقال لي : ما حججت قط. وبينه وبين مكة ثمانية مراحل(؟)، وسألته عن المدينة فقال لي : دخلتها مرتين أو ثلاثاً. وبينه وبينها ثلاثة مراحل، وأمثال هؤلاء كثيرون)[١] .

(١) : «العياشية» ١ /٣١٢.

من مكة إلى المدينة

ولنرافق رحّالتنا ـ بعد أداء الحج ووصف المشاعر المقدّسة في مكة وآثارها في رحلته إلى المدينة، حيث يصف لنا كثيراً من المواضع التي مَرَّ بها.

الطريق من مكة إلى المدينة : قال[١] :(ولما كان يوم الأحد الموفي عشرين ذي الحجة، أخذ المغاربة في الرحيل من مكة بعد ماقضوا أوطارهم واشتروا تجاراتهم، وهم أول الأركاب الواردة من الآفاق خروجاً من مكة. بل لايخرج قبلهم إلا بعض قفول أهل المدينة المشرفة، فطفنا طواف الوداع ضحى وخرجنا إلى منزل الحاج وهو الشبيكة. وقال ـ فيما تقدم[٢] : والتحقيق ماعليه كثير من المؤرخين أن ذا طوى ليس بينه وبين مكة وادٍ آخر، وهو الوادي الذي وراء قعيقعان، وبأسفله الموضع المسمى بالشبيكة.

ثم ارتحلنا من الشبيكة وهي الثنية السفلى التي بأسفل مكة، ومنها خرج النبي صلى الله عليه وسلم.

قال ابنُ رُشَيْدٍ في رحلته : وذكر بعض أئمتنا أن الخروج إلى عرفات من الثنيّة السفلى أيضاً، فروى عن الحافظ أبي محمد علي بن أحمد الأندلسي قال : كداء الممدودة هي بأعلى مكة عند المحصب، حلق رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذى طوى إليها أي أصعد إليها، وكُداً بالضم والتنوين، بأسفل مكة عند ذى طوى، بقرب(؟) من شعب الشافعيين، عند قيقعان حلق رسول الله صلى الله عليه وسلم منها إلى المحصب، فكأنه صلى الله عليه وسلم ضرب دائرة في دخوله وخروجه، بات صلى الله عليه وسلم بذي طوى، ثم نهض إلى أعلى مكة فدخل منها، وفي خروجه أتى أسفل مكة ثم رجع إلى المحصّب. قال أبو محمد الأندلسي الظاهري : أخبرنا بذلك أحمد بن محمد العبادي[٣] عن كل من لقي بمكة من أهل المعرفة بمواضعها من أهل العلم بالأحاديث في ذلك. قال ابن رشيد : وإنما سلك رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الطريق محلقاً شبه

---

(١) : ١ /٢٢٧-٢٢٨.

(٢) : ١ /١٩٠.

(٣) الصواب : العذري.

دائرة، لأنه لايحصل التيامن في النزول والدخول إلى مكة والخروج منها إلا كذلك، فتأمله والله أعلم. قلت : وما نقله ابن رشيد عن ابن حزم من خروجه صلى الله عليه وسلم إلى عرفات من كدًا لم أر من ذكره من أهل السِّيَرَ والحديث، مع شدة تتبعهم لأفعاله وحضور جمع من المسلمين لم يجتمع مثله قط في حياته صلى الله عليه وسلم، ومثل هذا لايكاد يخفى من أفعاله في ذلك الجمع العظيم، فقد حُفِظ من أفعاله صلى الله عليه وسلم في تلك الحجة الخفيِّ والجليِّ حتى مَباله عليه السلام في الشعب قبل الوصول إلى مزدلفة، فكيف يخفى هذا على أئمة الحديث والسِّيَر؟ بَيْدَ أنّ الحافظ أبا محمد بن حزم مُغْرًى بجمع الغرائب مع سعة اطلاعه ووفور علمه، وكثرة حفظه الذي لا ينكره له موافق ولا مخالف، فقد ذكر بعض الأئمة أن أبا محمد بن حزم ساق حجة الوداع في كتابه الذي أفرده لحجة الوداع مساقاً لايمكن أن يسوقها كذلك، حتى بعض من حضرها لكثرة ما جمع، ومبالغته في التتبع للطرق وجمع الروايات وترجيحها، وهو أهل لذلك.

والمذكور عند سائر المحدثين أنه صلى الله عليه وسلم لم يزل نازلاً بالأبطح من يوم دخوله مكة إلى أن ارتحل ذاهباً إلى منى يوم التروية، ويبعد أن يرتحل من الأبطح وينحدر إلى مكة، ثم يخرج من كُدى ثم يصعد إلى كَداء فينزل منها إلى الأبطح فيذهب إلى منى من غير حاجة أكيدة، لما في ذلك من المشقة الفادحة الحاصلة من تحليقه بأمكنة متعددة حتى يعود إلى المكان الذي ارتحل(منه)، ومثل هذا ليس من الأفعال الجبليّة، ولو فعله صلى الله عليه وسلم لكان فيه أقوى دليل على مشروعيته وتأكيد العمل به، ولسأله أصحابه عن السير في ذلك لمخالفته للعادة مخالفة قوية، ولو كان ذلك لنقل نقلاً مستفيضاً، وصار من أفعاله المطلوبة، وليس هذا مثل إدارته ناقته في محل، لخفّة الإدارة، وقد تكون لغرض اقتضاه الحال، مثل قصد العدول إلى ناحية، أو إرادة تكليم أحد، فدارت الناقة لأجل ذلك، وذلك كثير ما يقع للإبل، ومع ذلك نُقِل، فليتأمَّل ما ذكرنا، والله أعلم)[1] .

(١) : «العياشية» ١/٢٢٧ — ٢٢٩.

وادي الشريف(مر الظهران) :

وكان ارتحالنا من الشبيكة قبل الظهر.

ونـزلـنـا من الظهر الوادي المسمى بوادي الشريف بعد العصر بقليل... وبتنا هناك.

عسفان :

وفي الغد ارتحل الناس بعد طلوع الشمس وسرْنا يومنا على الطريق المعهودة، ولم نقيِّل حتى نزلنا بعسفان بعد المغرب.

خُليص :

ثم ارتحلـنـا وجـئـنـا إلـى خليص قبل الظهر، في حَرٍّ كثير، مات فيه أناس، ومرض آخرون، وقيَّل الناس فيه، ثم بدا لهم في المبيت لدفن من مات.

وفي آخر ذلك اليوم جاء إلينا مشايخ الركب وكبراؤه بالرحيل لِئلا نُجاوِر، وبـالـغـوا فـي الحـث والاعـتـذار، ورددنـاهم بأمر محتمل، وهم لايشكون أنا قبِلنا كـلامـهـم، وكـاد أخـونا سيدي عبدالرحمٰن الذي كان سبباً في المجاورة أن يميل إلى قولهم لما حصل له من المرض، وما رأى من إلحاحهم علينا وإقسامهم، فلم أرَ رأيـه فـي ذلـك، وصـمـمـت على المجاورة، لأني خرجت من مكة غير مودِّع وداع مفارق، ولو ذهبت كذلك إلى المغرب لبقيت حسرة في قلبي ماشاء الله.

وقال في موضع آخر :

ثم سـرنـا ــ مـن مـكـة ــ مع رفقة ليس فيها أحد من أبناء جنسنا وضاقت علينا الأرض بما رحبت، وأساء الأكرياء معنا في الركوب والنزول والحملان...

ونـزلنا في خليص، في رأس العين بقهاوي هناك، واستطال علينا المكارون، إذ ليس بالقافلة أحد من المغاربة وقالوا : إن أمتعتكم ثقيلة، فإما أن تزيدوا في الكـراء، وإمـا أن نطرح لكم أمتعتكم هنا حتى يقدم عليكم الركب، وزدنا لهم في الكراء.

مسيترة(مستورة) :

ومررنا بمسيترة ظهراً، ولم يقل الناس لكون الهواء فيه بعض البرودة، وساروا يومهم ذلك حتى العشاء، ونزلوا قرب سبيل محسن.

قديد :

ثم ارتحلنا من خُليص، ومررنا بقديد في الضُّحَى الأعلى، ولم يُقِل الناس في ذلك اليوم، لأنَّ الهواء فيه بعض رطوبة.

السبيل بين قديد والجحفة :

قال : (ومررنا بالسبيل الذي هناك قبل العصر، وفيه ماء قليل، وحوله ناس من الأعراب يبيعون العلف والحبحب والرطب، يأتون بكل ذلك من القرية التي بإزائه، وبينه وبينها عشرة أميال على يمين القادم من مكة، ولم نبت ذلك اليوم حتى قاربنا الرمل الذي دون الجحفة)[١] .

رابغ :

ثم ارتحلنا منه غداً، وجئنا إلى رابغ عندما اشتدَّ الضحى، ونزل الناس به قائلين ثم بدا لهم في المبيت خوفاً من العطش بالبزوة، إن باتوا بها ليلتين. فلما صلينا الظهر برز الناس إلى جانب الوادي الغربي، وكانوا في النهار متفرقين في القهاوي، وفي الأجنَّة، ونزل بعضهم أعلى الوادي، وبعضهم أسفله، واجتمعوا عند المبيت إلى محل يمكنهم منه التبكير.

سبيل محسن في البزواء :

(ثم ارتحلنا من رابغ، وبالغ الناس في محل الماء خوفاً من العطش، لكون البزوة معروفة في أيام الشتاء، فضلاً عن أيام الحرّ ــ بذاك. وقد أخبرنا شيخنا محمد بن مساهل الطرابلسي، أنه لما حج في سنة سبع وستين خرجت عليهم ريح

---

(١) : «العياشية» ١ /٢٢٩.

في هذا المحل أهلكت كثيراً من الناس، وكان ذلك في أيام البرد، ولأجل مايقع في هذه المحل من العطش اتخذ فيه سبيلان للماء يجلب إليهما من نحو مرحلة، أحدهما يسمّى سبيل محسن إضافة لبانيه ومحبِّسه الأمير محسن والد زيد بن محسن أمير مكة، وهو الذي يلي مسيترة، والآخر لولده زيد وهو الذي يلي بَدْراً، وقد قسما المسافة مابين بدر ومسيترة أثلاثاً في التقدير، إلا أنهما قلّ ما يوجد فيهما ماء، ليسارة ما يحمل إليهما من الماء لبعد الشقة)[1] .

(ثم ارتحلنا من هناك، ومررنا بالسبيل الآخر ظهراً وما قيَّل الناس أيضاً، وجئنا لبدر قبل غروب الشمس بقليل، ونزلنا على طرف البركة التي هناك، ولم يتيسَّر للناس إخراج خزينتهم في تلك الليلة، فلما أصبحوا أخذ الناس في رفع أزوادهم المدَّخرة هناك، ووجدوا ببدر رطباً كثيراً بأرخص قيمة، وأخذوا منه ما اشتهوا. ولما لم يرتحل الركب صبحاً ظنوا أنهم لايرحلون إلى آخر النهار، و يبرد الهواء، وبينما هم في اشتغالهم قبل الظهر بقليل في أشدّ ما يكون من الحر، إذ ضرب شيخ أهل تونس طبله، وارتحل الناس بلا مشورة، واشتد الحر عليهم ما بين تلك الجبال، ولم يصلوا إلى الصفراء حتى وقع الموت في الإبل والناس، فمات ناس وإبل كثيرة من شدة الحرّ. وكان من لطف الله بنا أنّا لما اشتد الحرّ عدلنا إلى قهاوي على يسار الطريق وأنخنا إبلنا خارجها، ودخلناها وجلسنا فيها ساعة حتى استرحنا واستراحت الإبل، وصلينا الظهر والعصر، ثم سرنا آخر الناس كلهم فلم يضع لنا جمل ولا رجل في ذلك اليوم. وبتنا بعدما جزنا الصفراء بساعة عند مفترق الطرق التي تذهب إلى الينبع والتي تذهب إلى جديدة)[2] .

بئر المُلاَّ نافع :

وذكر وهو عائد من المدينة إلى مكة مروره ببئر تدعى(بئر المُلاَّ نافع)،وسيأتي ذكره عند ذكر العلماء الذين اجتمع بهم في المدينة. قال : ثم إلى مستيرة[3] (؟) ثم خرجنا منها، وعدلنا يميناً، عن طريق الركب المعهودة، وتركنا

(١) : «العياشية» ١ /٢٣٠.

(٢) : «العياشية» ١ /٢٣٠.

(٣) هي(مستورة).

المسافة المسماة بالبزوة يساراً، ودخلنا بين تلول وكثبان ورمل عظيم، ونزلنا بئر الملا نافع قرب الصباح، بعدما غلبت الإبل، وهذه البئر تنسب إلى أحد الفقهاء الحنفية المستوطنين بالمدينة، وقد تقدم ذكره ــ وهو الذي حفرها بماله، ونفع الله بها العباد، لأنها في مكان منقطع بين رمال كثيرة، وكان صاحبها الذي تنسب إليه حاضراً معنا في القافلة لأنه حج في هذه السنة.

وهذه الطريق لايسلكها إلا القوافل لكثرة رمالها، وإنما سلكوها لأنها أخصر من الأخرى بيوم فإنها تأخذ عن يمين بدر إلى أن تنزل بالصفراء ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا الصفراء وسط الليل) (١) .

الجديدة : قال : ثم ارتحلنا ــ من مفترق الطرق ــ وجئنا الجديدة وقت الغداء، واشتد الحرُّ، ونزل الناس بها لخزن أموالهم وأحمالهم، وما يفضل من زاد وعلف، إلى أن يرجعوا من المدينة، وتلك عادة الركب المغربي والمصري، بل غالب المصريين يبعثون أحمالهم وأثقالهم من بدر إلى الينبع مع الأعراب والفلاحين الذين لا غرض لهم في الزيارة، إذ لاقصد لهم إلا في الكراء. وليس في بلاد الحجاز مكان أشدّ حرّاً من هذه الخيوف فيما علمنا.

وقال في موضع آخر من رحلته (٢) :(وقد رأيت جماعة بالصفراء يصلون في مسجد لهم، فلم أر أحداً منهم يرفع يديه في تكبيرة الإحرام بل يفتتحون الصلاة بالقراءة سادلين أيديهم، فعلمت أنهم روافض وهم غالب أهل تلك القرى).

وقال في موضع آخر : ووجدنا هناك برْكة عظيمة بجديدة، بناها أمير الحاج الشامي، ذات ماء غزير، قد صنعت وراءنا وما كنا رأيناها قبل ذلك، أعانت الناس في سقي الإبل ومَلْءِ القرب، ولولا هِيَ لأفناهم وإبلهم العطش، لأن ماء القرية التي ينزل بها الحاج وجدناه قد غار، ورجع الناس إلى البركة فسقوا واستقوا، وعزموا على الرحيل، ثم بدا لهم في المبيت لكثرة الموتى والمرضى، ترى الرجل يمشي في حوائجه فتغيب عنه ساعة، ثم يقال لك قد مات، وذلك ــ والله أعلم ــ من شدّة الحرّ وكثرة شرب الماء مع التعب المفرط، فتنفطر قلوبهم..

---

(١) : «العياشية» ٢ /٢٨٦.

(٢) : ١ /٢٩٣.

وفي هذه القرية مسجد جامع ببناء متقن، تجرى العين من تحته من بناء الأمير رضوان ــ رحمه الله ــ وكم له في طريق الحج من مآثر ومعالم تدلُّ على عُلُوِّ همته (١) .

النازية :

(ثم ارتحلنا من جديدة وجئنا وقت الغداء للنازِية، ووجدنا بأوّلها سبيلاً فيه ماء)(٢) .

عرق الظبية :

(وجئنا لمسجد الغزالة، وهو من المساجد التي صلى فيها النبي صلى الله عليه وسلم، وهو المسمى عند المؤرخين بمسجد عرق الظبية، وأناخ الناس فيه حتى أفطروا، ثم سرنا صاعدين مع الوادي حتى أتينا بئر الروحاء)(٣) .

الروحاء :(ثم سرنا ــ من مسجد الغزالة ــ صاعدين في الوادي حتى أتينا بئر الروحاء قبل الظهر، وأنخنا فيه ساعة واستقينا منه ماء قليلاً، لأن بئره طويل، وماؤه ضنين، وهو حلوٌ، وحوله بركة عظيمة قد تعطَّلت، وبقربها مسجد وثيق البناء صحيح، ولو قيّض الله لذلك الموضع من يعمره لكانت فيه أي إعانة للحجاج، ولكن الله يفعل ما يريد.

وقد ذكر السيد السمهودى قريباً من البئر مسجداً من مساجده صلى الله عليه وسلم ولا أدري هل هو المبني الآن أو غيره، وقد تأملت فيما قَرُب من البئر فلم أر أثر مسجد غير هذا)(٤) .

شرف الروحاء : قبور الشهداء :

ثم سرنا منه ــ بئر الروحاء ــ واشتد الحر، وجعلت الإبل تدخل في الشجر وتطلب الظل، وتمتنع من المشي ولو ضُرِبتْ فيسير الناس ساعة ثم يقفون، ومات

(١) : «العياشية» ١ /٢٣٠.
(٢) : «العياشية» ١ /٢٣١.
(٣) : «العياشية» ١ /٢٣١.
(٤) : «العياشية» ١ /٢٣١.

أنـاس آخرون، ولم ننزل حتى قربنا من شرف الروحاء، وهو المكان المسمى الآن بقبور الشهداء، قبل العشاء بقليل. ولما قرب الفجر مرَّت بنا قافلة أهل المدينة التي جاءتْ من مكة، وهم يسيرون ليلاً[1] .

ثم ارتحلـنـا بـعد طلوع الفجر ــ من شرف الروحاء ــ وجئنا لقبور الشهداء، عـنـد طـلوع الشمس، وقد ذكر بعض الناس أن الشهداء الذين سمي بهم المكان قـوم قـتـلوا هـناك ظلماً، وقد ذكر السمهودي مسجداً من مساجده صلى الله عليه وسـلـم بـشـرف الـروحـاء، وهناك مكان محوط بحجارة شبه مسجد، يزوره الناس، وأظنه هو.

وفـي شـرف الـروحـاء آثـار آبـار مـعطَّلة، و بنيان داثر، وقد كانت هناك في القديم قر ية ولم يَبْدُ الآن بها شيء من ذلك.

وقـد وجـدنـا هـنـاك سـبيلاً آخر مبنيّاً، تجدد وراءنا فيه ماء، وحوله ناس من الأعـراب يـبـيـعـون المـاء والـعـلـف، وأخْبرنا أن وراء الجبل بلد خال ، فيه آبار و بعض نخيل. وأظنها السّقيا[2] ، فإنها قر يب من شَرَف الروحاء[3] .

الفر يش :(فلما جاوزنا شرف الروحاء وجدنا قافلة المدينة التي مرَّت بنا ليلاً نـزلـتْ أمـامـنـا، وتجاوزناهم حتى جئنا الموضع المسمّى بالفر يش[4] فأناخ الناس حتـى أفـطروا، وساروا في يوم حارّ عازمين دخول المدينة المشرفة في ذلك اليوم، ولم يعبأ الناسُ ولا إبلهم بما لقوا من شدة الحر في ذلك اليوم لشدة الفرح)[5] .

مُفَرِّح :قـال[6] :(وأول مـكـان تُـرى مـنه قبابها وأسوارها، وتشاهد منه بالبصر والبصيرة أنوارها، الجبل المسمى بمفرح، فتسارع الناس عند الدنوّ منه لصعوده...

---

(١) : «العياشية» ٢٣١.

(٢) : «العياشية» ١ /٢٣١.

(٣) : السـقـيـا هـي أم البـرك وليست هذه التي ذكر. بل تقع على الطريق المتجه من المنصرف ــ المسيجيد شرقاً إلى مكة وتعرف السقيا الآن باسم أم البرك

(٤) : في الأصل(بالعر يش) تصحيف.

(٥) : «العياشية» : ١ /٢٣٢.

(٦) : ١ /٢٣٣.

ثم أورد قصيدة له طويلة منها :

هـــذا مـــفـــرّح كـــاســـمـــه وكـــأنـــه
يـــاقـــوتـــة رشّـــت بـــذائـــب عَـــنْـــبَـــر

وأمـــامـــه الـــبـــيـــداء يـــســـطـــع نـــورهـــا
لـــبـــصـــائـــر الـــزوّار، هـــل مـــن مـــبصر؟

وعـــلـــى يـــمـــيـــنـــك قـــد بـــدا(عير) يـــرى
بـــالـــقـــرب كـــالـــثـــور الـــعـــقير الأعـــفـــر

وأنـــخ ركـــابـــك بـــ(المـــعَـــرّس) إنـــه
لمـــبـــارك، وبمـــائـــه فـــتـــطَـــهَّـــرِ

واحـــد الـــركـــاب مـــع(الـــعـــقـــيـــق) مـــنـــعـــمـــاً
عـــيـــنـــيـــك فـــي ذاك المـــكـــان الـــنـــيّـــر

يـــا حـــبّـــذا(أحـــد) نـــراه يحـــبّـــنـــا
ونحـــبّـــه، جـــبـــل جمـــيـــل المـــنـــظـــر

فـــكـــأنمـــا هـــو حـــلّـــة مـــن عـــســـجـــد
صـــبـــغـــت جـــوانبهـــا بمـــســـك أذفـــر

ــ إلى أن قال ــ: ولما تجاوزنا مُفَرِّح بغلوة أو غلوتين وصلنا إلى منتهى أبْعد الحرمين، وهو حرم الشجر الذي هو بريد في بريد، وحدُّه طرف البيداء[1] ... وجئنا وقت العصر إلى ذي الحليفة.

---

(١) : ١ /٢٣٣ /٢٣٤ /٢٣٥.

في المدينة المشرفة

في المدينة المشرفة :

في المدينة المشرفة : كانت مدة إقامتنا بالمدينة المشرفة سبعة أشهر ونصف، لأنا دخلناها في الليلة الثانية من محرم(١٠٧٣هـ)، وكان خروجنا منها إلى مكة في السابع عشر من شعبان.

(كان دخولنا للمدينة المشرفة ليلة الخميس الثانية من المحرم فاتح عام ثلاثة وسبعين وألف، وبتنا تلك الليلة برباط سيدنا إسماعيل بن جعفر الصادق، فمنّا مَنْ زار ومنا من تأخر إلى الصباح، لأن الحرم الشريف بعد صلاة العشاء يغلق ولا يفتح إلا قرب الفجر)(١) .

وكنا نسكن أولاً في محل نزولنا بجوار مشهد السيد إسماعيل كما تقدم. وكان أفسح الأمكنة وأوسعها، وأبعدها عن زحام الناس، به أخلية للوضوء، وبئران.

وكان قَيّمُ المشهد أحد أصحابنا المغاربة المجاورين، وهو الذي أنزلنا به، وكان يتولّى إصباحه وكنسه وإغلاقِ أبوابه، ويقبض مايؤتى به من الصدقة إليه، ولأه ذلك مفتي المالكية بالمدينة، صاحبنا الخطيب أحمد، وأخوه الخطيب عبدالرحمن، لأنَّ ولاية المشهد لهما، فإذا اجتمع من الصدقات ماله بال، دفع لهما حصَّةً منه وانتفع بالباقي، كما هو شأن سائر المشاهد بالمدينة بل وبغيرها، صارت أماكن جباية يولّى عليها من قبل القاضي.

وكنا مدة نزولنا به في أرغد عيش وألذِّهِ، لايُزاحمنا فيه غيرنا، لولا بعدنا من المسجد، فكنا إذا خرجنا لصلاة الظهر في أيام الحر تكاد الرمضاء تحرقنا، إنما نتفيأ ببقايا الظلال ومبادي الفيء تحت الجدران، ومع ذلك يلفحنا الحرُّ لفحاً فلا نصل إلى المسجد إلا بعد مشقة. ولكننا نحتسب في ذلك خطانا ونغتفر ذلك لما اغتبطنا به من السعة وجوار أهل البقيع...

---

(١) : ١ /٢٣٥

وما كان ينغّص علينا فيه إلا كثرة النخاولة إلى ذلك المحل وهم(....) الساكنون خارج المدينة في العوالي وغيرها من الجهات، فإن جلّ من يسكن هناك و يتولى العمل في البساتين والفلاحة فيها(....) و يسميهم أهل المدينة النخاولة، ولا أدري ما معنى هذا الاسم. ولم نزل ساكنين في المشهد المذكور إلى أواسط ربيع الأول، ومرضت فيه بالحمى الصفراوية، ومرض الجلّ من أصحابنا وضعفنا عن الوصول إلى المسجد من المرض، وكان ابتداء مرضي ليلة المولد الشريف، وكان الناس يسمون ذلك المحل الذي سكنا فيه ــ مع كونه أفسح المحال ــ بثقل السكنى وكثرة الأمراض، ولذلك شاهدٌ، فإن هذا المحل قريب من ذنب مَشْعِط، الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم «اللهم حبب إلينا المدينة وانقل وباءها إلى مَهْيَعَة وما بقي منه فاجعله تحت ذنب مشعط». وقال أيضاً : إن كان الوباء في شيء من المدينة فهو في ظل مَشْعِط.

قال السيد : ومَشْعط بالشين المعجمة كمرفق أطم لبني جذيمة كان في غربي مسجدهم قرب البقيع. وقال في موضع آخر : كان غربي مسجد أُبَيٍّ، ومسجد أُبَيٍّ قريب من مشهد العباس[1].

وقد تحدث العياشي عن الزيارة، وعن وصف الحرم الشريف، والروضة المقدسة، والقبور الكريمة، ووصف ما في المدينة من مساجد وآثار، وعوَّل على السيد السمهودي ــ مؤرخ المدينة ــ فنقل عنه، وأكثر النقل، وما أضافه يميزه بقوله :(قلت) أو(وهذا لم يذكره السيد). ولم أنقل ماذكر عن السمهودي لأن كتابيه معروفان«وفاء الوفاء» و«خلاصة الوفاء».

في الحرم الشريف : قال[2] :(ولما كان يوم الثلاثاء سابع الشهر محرم ــ ارتحل الركب المصري من المدينة بعد إقامة ثلاثة أيام بها، وكان الحرم الشريف في أيام إقامتهم لاتكاد تسمع فيه صوت قارىء ولا مؤذن، لكثرة اللغط والصخب ورفع الأصوات، وازدحام الناس في المسجد، لاينقطع ذلك ليلاً ولا نهاراً لأن أبواب الحرم لا تغلق ما داموا هناك، و يكثرون بالليل إيقاد الشموع في

---

(١) : ١ /٢٧٤.

(٢) : ١ /٢٤٣و ٢٤٤

المسجد، وتجتمع إليهم صبيان أهل المدينة يقرأون لهم موالد وقصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وهم محدقون بهم، و يسمون ذلك مولد النبي صلى الله عليه وسلم، يستعدون له من بلادهم بالشمع والحلواء، و يدفعون للصبيان أجرة على ذلك، و يقع على أرض الحرم من الشمع المذاب شيء كثير لأجل ذلك، فيلتقطونه ويجمعونه، و يرجعون به إلى بلادهم تبركاً به، فتجد منهم في المسجد بالليل جماعات كثيرة على هذا النمط، فيكثر لذلك الصياح في المسجد واللغط الذي لا ينبغي. لاسيما ما يضاف إلى ذلك من ولاول النساء، و بكاء الأطفال واختلاط النساء بالرجال، و بالجملة فعوامّ المصريين من أبعد الغوغاء من إصابة الصواب، لولا أن بحر رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكدّره الدلاء لكانوا جديرين بالمقت، بسبب ما يحصل منهم من سوء الأدب وسيء الأقذار في الحرم الشريف..

حكى لي بعض المجاورين أنه وُجِدَ في بعض المواسم رجل مع امرأة في الحرم الشريف، فحملا إلى الحاكم، فشهدت البينة أنها زوجته، وقيل له : ما حملك على ما فعلت؟. فقال : إنه لا وَلَدَ لنا، فرجوت أن تحمل المرأة ببركة هذا الحرم، فعذر بجهله، ولم يعاقب[1] .

وقال عن فرش الحرم الشريف :(ولما استهل ربيع النبوي نظف الحرم الشريف، وفرش بفرشه المعهودة من الزرابي المبثوثة الحسان، التي لا يوجد لها نظير إلا في بيوت الملوك، وغالبها يأتي من أرض الهند، من ملوكها، وقد رأيت سُدَى بعضها حريراً خالِصاً، وكنت أتَوَقّى الصلاة فيها، وطعمها من جيّد الصوف)[2] .

وقال :(وكانت عادة المصريين ليلة رحيلهم من المدينة أن يجتمع أمراؤهم وكبراء أهل المدينة والأغوات في صحن المسجد ليلاً، و يوقد شمع كثير، على حَسَكٍ كبار من فضة وُشِّيَتْ بذهب، ويحضر جماعة من المنشدين ينشدون قصائد في مدحه صلى الله عليه وسلم، و ينثر عليهم من اللوز والسكر والأزهار وأنواع

(١) : ١ /٢٤٤ /٢٢١ : ١ /٢٨٤.

(٢) يقصد لحمتها ــ أي ظاهرها ــ.

الحلوى ويدار عليهم بالأشربة اللذيذة إلى أن يمضي هزيع من الليل، وهذه عادة أمرائهم وأمراء الشاميين في ليلة الرحيل، ولم يفعل المصريون شيئاً في هذه السنة، لما وقع من الاختلاف والعزل بين أمرائهم ــ كما تقدم)[1] .

مساجد المدينة وآثارها :

البَقِيع ــ مقبرة المدينة ــ قال :(فأول ما يلقاك من المشاهد إذا خرجت على باب المدينة المسمى بباب البقيع، قبة فيها صفية بنت عبدالمطلب، على يسارك وأنت ذاهب في الزقاق الذي في وسط البقيع إلى ناحية المشرق.. وإن ملت إلى اليمين مع سور المدينة، فهناك مسجد صغير قيل إن فيه موقف النبي صلى الله عليه وسلم حين خرج يستغفر لأهل البقيع، وقيل : هو زاوية دار عقيل بن أبي طالب التي دفن فيها، وفيها دفن كثير من أهل البيت)[2] .

وسرد ما في البقيع من المشاهد المعروفة في عهده :

مساجد المدينة :

وتتبع مساجد المدينة مسجداً مسجداً فوصفها مُعَوِّلاً على مؤرخ المدينة السمهودي، ومن تلك المساجد :

مسجد قبا : قال بعد أن وصفه : وفي خارج المسجد من ناحيته الغربية رباط كبير مليح، مبني بالحجارة المنحوتة، فيه بيوت كثيرة يسكنها الغرباء، وله أوقاف، وُمَقدَّمُهم القيم بأمر الرباط صاحبنا الشيخ صالح بن أحمد اليمني المصري[3] .

---

(١) ذكر(ص٢٣٦ ج١) : وكانوا ــ يعني المغاربة ــ تخوفوا إزعاج المصري إياهم عن الإقامة، هو شأنه في غالب السنين، فلا يقيمون إلا يوماً واحداً، وفي هذه السنة أشغلهم عن ذلك ما وقع منهم من الاختلاف؛ فقد جاءت كتب من مصر بعزل الأمير إبراهيم، وتولية أبي الشوارب مكانه. وأبى المعزول أن ينقاد لحكم العزل حتى كادت أن تكون فتنة ولكن الله سلم، فاستسلم للأمر وسلم المحمل للأمير عبدان، وكان حج معه. وأقام هو بالمدينة إلى أن توفي بها بعد شهر أو أزيد.

(٢) : ١ /٢٤٤.

(٣) : ١ /٢٤٨.

مسجد الجمعة : قال عنه : (وهو في طريق قبا على نحو ميل أو أقل من مسجد قبا عن يمين الذاهب من المدينة إليها، على الطريق التي تمر بين النخل، ومَنْ مَرَّ على طريق الحرَّة الغربية فهو على يساره. فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج من قبا في هجرته أدركته الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن الوادي، وهي أول جمعة صلاها صلى الله عليه وسلم بالمدينة. وهذا المسجد اليوم في منخفض من الأرض أحاطت به حدائق النخل من أكثر جهاته.

وفي شماله أطَمٌ خراب قيل إنه محل عتبان بن مالك، وفيه أثر مسجد صغير غير مسقف، يقال : إنه المكان الذي صلىٰ به النبي صلىٰ الله عليه وسلم من بيته.

ومسجد الجمعة في مستبطن الوادي الذي يحول بينه وبين قومه إذا سال، ومنازل قومه في غربي الوادي على طرف الحرّة[1] .

مسجد الفضيح : وهو مسجد صغير شرقي مسجد قبا على شفير الوادي على نشز من الأرض مرضوم بحجارة سود....

ويعرف الآن بمسجد الشمس. قال السيد : ولا أعلم سبب هذه التسمية[2] .

مسجد بني قريظة : قرب حرتهم الشرقية على باب حديقة هناك، وعنده خراب أبيات شمالي الحديقة من دور بني قريظة، وأطم الزبير بن باطيا القرظي داخل في هذا المسجد... وهذا المسجد كبير عليه حظيرة من حجارة قريب من القامة. وفي زاويته الغربية الشمالية دكة كبيرة هى موضع منار المسجد قبل انهدامه[3] .

---

(١) : ١ /٢٤٨.

(٢) : ١ /٢٤٨ ويعني بالسيد: السمهودي.

(٣) : ١ /٢٤٨.

مسجد مشربة أم إبراهيم : وهذا المسجد شمالي مسجد بني قريظة قريب من الحرة الشرقية[1] .

مسجد بني ظفر : شرقي البقيع بطرف الحرة الشرقية، و يعرف اليوم بمسجد البغلة...

وعند هذا المسجد آثار في الحرة من جهة القبلة، يقال إنها أثر حافر بغلته صلى الله عليه وسلم، وهناك أيضاً أثر على حجر كأنه أثر مرفق، يُذْكر أن النبي صلى الله عليه وسلم اتكأ عليه، ووضع مرفقه الشريف عليه، وعلى حجر آخر أصابع. والناس يتبركون بها[2] .

مسجد الإجابة : وهو لبني معاوية بن مالك من الأوس، وهو شمالي البقيع قريب منه على يسار السالك إلى العريض، بإزائه تلول هى آثار قرية بني معاوية)[3] .

مساجد الفتح : الأول المرتفع على قطعة من جبل سلع في المغرب، يصعد إليه بأدراج شمالية وشرقية، هو المراد بمسجد الفتح عند الإطلاق، و يقال له أيضاً: مسجد الأحزاب والمسجد الأعلى..

وأما المساجد التي في قبلته، فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في مسجد الفتح الذي على الجبل وفي المساجد التي حوله. ثم نقل كلام السمهودي ونصه : وهو ظاهر ثلاثة مساجد :

فأحدها : الذي يلي المسجد الأعلى يعرف بمسجد سلمان الفارسي.

وثانيها : يلي قبلة هذا المسجد، يعرف بمسجد علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

---

(١) : ١ /٢٤٩.
(٢) : ١ /٢٤٩.
(٣) : ١ /٢٥٠.

وثالثها : في قبلة الثاني على طرف جبل سلع، جانحاً لجهة المشرق، و يعرف بمسجد أبي بكر، وهو أصغرها. في باب المعروف منها بعليٍّ مَاجِلٌ ينزل إليه بدرج.

وأهل المدينة يخرجون إلى هذه المساجد لقصد التفرُّج، في أيام كثيرة، ولهم يوم معروف في السنة يخرجون إليها بالأخبية والأطعمة الكثيرة، فيبيتون بها في لهو وطرب، وهو يوم النصف من شعبان.

مسجد القبلتين :(غربي بطحان وسلع، قريب من العقيق في مكان مرتفع، والطريق إليه في آكام سود من الحرة وشعاب... وعليه بناء وثيق. وليس بقربه شيء من العمارة، وقريب منه حديقة فيها بئر ماء. وأرض تزرع(١) .

مسجد السقيا :(على يسار الذاهب إلى المدينة من العقيق في الحرة الغربية على طريق الحاج عندما يقرب من المساكن، و يشرف على المدينة...

قال : وهو اليوم مبني ببناء وثيق، يأوي إليه الغرباء في بعض الأحيان خصوصاً أيام الموسم، فإن الركب المصري ربما وصلوا بالنزول في بعض السنين إلى تلك الناحية(٢) .

مسجد ذباب : و يعرف اليوم بمسجد الراية، وهو على جبل صغير قريب من سلْع من شرقيّه قريب من ثنيّة الوداع، على يسار الداخل إلى المدينة من طريق الشام.

---

(١) : ١ /٢٥٢.
(٢) : ١ /٢٥٢.

كهف سلع، وشعب بني حرام :

(قال السيد بعد إيراد حديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس في كهف سلع، وكان يبيت به ليالي الخندق، وأن معاذ بن جبل خرج يطلب الرسول صلى الله عليه وسلم فَدُلَّ عليه في جبل ثواب، فخرج حتى رقى جبل ثواب ـ قال :ـ فبصرته في الكهف الذي اتخذ الناس إليه طريقاً إلى مسجد الفتح فإذا هو ساجد ـ الحديث ـ قال السيد : جبل ثواب لم أقف له على ذكر، لكن صفة هذا الكهف بما ذكر ظاهِرٌ في إرادة الكهف المذكور بسلع على يمين المتوجه من المدينة إلى مساجد الفتح من الطريق القبلية، بقرب شعب بني حرام فإن عن يمينه هناك مجرى سائلة تسيل من سلع إلى بطحان، فإذا دخلها صعد يسيراً في المشرق كان الكهف عن يمينه، وأعلى منه في المشرق كهف آخر لكنه صغير جداً، فالأول هو المراد، وإذا توجه من هذه السائلة طالب مساجد الفتح، كان شعب بنى حرام على يمينه، وهو شعب متسع فيه آثار مساكنهم، وأثر مسجدهم الكبير...

قلت : وأثر المسجد اليوم باق بأسفل الوادي إلا أنه لابناء عليه. وإنما عليه حظير صغير، وهو لايعرفه كثير من الناس، ولا يُؤْبَهُ به، وكذا الغار)[1] .

مصلى الأعياد : (المشهور منها الآن ثلاثة، كلها غربي المدينة خارج باب المصري بين الموضع المعروف بالمناخة وبطحان)[2] .

المشهد(قبر حمزة) :(والمشهد عليه قُبّة عالية متقنة[3]، وبابه مصفح بالحديد، وحوله بناء متسع فيه بئر، وفيه أخلية للوضوء متصلة بالسطح. قال السيد : والقبر الذي عند رجلي حمزة والذي بالصحن ليسا من قبور الشهداء، وفي خارج المشهد بئر أخرى كبيرة، وبإزائها صفة مسجد، وتحته ماجل ماء يهبط إليه بدرج، وباب

---

(١) : ١ /٢٥١ و٢٥٢.

(٢) : ١ /٢٧٣.

(٣) : البناء على القبور محرم شرعاً، والحمد لله الذي طهر هذه البقاع المباركة مما لا يبيحه الشرع الشريف.

المسجد في سائر الأيام مقفل لايفتح إلا يوم الخميس، يأتي القيّم من المدينة بالقصد لذلك)[١] .

المهراس : وفي أصل الجبل ـ أحد ـ غار يزعمون أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم اختفى فيه، ولايصح ذلك، ففي «مسند أحمد» عن ابن عباس رضى الله عنهما : وجال المسلمون جولة نحو الجبل، ولم يبلغوا حيث يقول الناس الغار، وإنما كان تحت المهراس. هـ.

وفي أعلى الشعب عند مضيقه من حيث يشرع للصعود للجبل الموضع المسمى بالمهراس، وهي مواضع منقورة في الجبل بين صخور عظيمة، يجتمع فيها المطر، قلّ ما تخلو منه... وفيه غسل جرحه صلىٰ الله عليه وسلم يوم أحد، كما في «الصحيح».

مسجد الفسح[٢] ومسجد الثّنِيّة : وهو المسجد اللاصق بأحد على يمينك وأنت ذاهب في الشعب للمهراس، وهو صغير منهدم...

قلت : وبين هذا المسجد وبين مشهد حمزة في البيداء التي هناك مسجد صغير مبني بالحجارة المنحوتة مرتفع،عن الأرض أقل من قامة يصعد إليه بدرج، غير مسقف ولا مرتفع الحيطان يقال له مسجد الثنية، واحدة ثنايا الإنسان يقال : إن فيه كسرت رباعية النبي صلىٰ الله عليه وسلم.

مسجد ركن جبل عينين الشرقي : علىٰ قطعة من الجبل، والجبل في قبلة مشهد سيدنا حمزة.

مسجد الوادي : على شفيره شامي جبل عينين، قريب من مسجد ركن جبل عينين، يقال إنه مصرع حمزة رضي الله عنه، وأنه مشى بطعنته من الموضع الأول إلى هذا فصرع.

---

(١) : ١ /٢٥٤.

(٢) : نقل عن السمهودي أن الناس يقولون : إن فيه نزلت(ياأيها الذين أمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس) الآية.

مسجد طريق السابلة : وهو الطريق اليمنى الشرقية إلى مشهد حمزة رضي الله عنه[1] .

مسجد في طريق أحد : وفي الطريق إلى أحد أيضاً عند آخر النخيل مسجد صغير محوط عليه بأحجار، يقال إن النبي صلى الله عليه وسلم جلس فيه للاستراحة بعد الرجوع من أُحُد، ولم يذكره السيد ــ رحمه الله ــ[2] .

---

(٢) : ١ /٢٦٣.

المياه في المدينة المنورة

المياه في المدينة المنورة

العين الزرقاء :

وتحدث العياشي عن عين المدينة بما ملخصه :(وقد جعل لماء بئر أريس نفق من أسفلها على وجه الماء، حتى يتصل ماؤها بالبئر التي يقال لها العين الزرقاء، وهي في حديقة أخرى قريبة من بئر أريس، وهي بئر كبيرة قد أمِدَّت بمياه آبار متعددة منها بئر أريس. فصارت متبحرة، يشخب فيها ميزابان عظيمان من مياه غيرها من الآبار. فاتخذت لها أسراب تحت الأرض إلى أن خرجت إلى بطحان، ثم إلى غربي المدينة، فقسمت جداول، فأدخل منها إلى المدينة ما احتيج إليه، فأظهرت داخل المدينة مناهل متعددة، وبني لها بناء متقن، يهبط إليها في نحو ثلاثين درجة محكمة البناء، متقنة الوصف، واسعة الممشى، منها يستقي أهل المدينة كلهم لشربهم.

والذي رأيت منها ثلاثة مواضع : أحدهـا شرقي المسجد بينه وبين باب البقيع، في المكان المسمى الآن الحرة.

والآخر : شامي المسجد بعيداً منه إلى ناحية باب الشامي.

والآخر : خارج باب السلام في الناحية الغربية عند سوق المدينة بالبلاط.

وأما خارج المدينة فأخرجت في محال متعددة أيضاً، ثم لم تزل تقرب من وجه الأرض قليلاً كلما انحدرت في أرض المدينة، إلى أن خرجت على وجه الأرض قريباً من الغابة، شرقي مسجد رومة، بينه وبين أحد. وعليها هناك المزارع، وقد رأيت جدولاً منها قريباً من مسجد الراية في طرف ذباب يهبط إليه في نحو ثلاث درج.

وهذه العين المباركة من أغزر العيون وأحلاها ماءً، وألذّه، بها جلُّ انتفاع أهل المدينة، ومنها كل السبيلات الموقوفة بالمدينة. ومنها تملأ الدوارق التي توضع

في الحرم للشرب، وهي لا تكاد تحصى كثرة، فما أعظم بركتها وأوسع نفعها[1] ولقد شاهدت من يستشفي بمائها، وقد حملنا بعض مائها للاستشفاء، ولله در القائل:

لئن قبل في زرق العيون شآمة
فعندي أن اليمن في عينها الزّرقا

وتسميتها بالعين الزرقاء من لحن العامة، وصوابه عين الأزرق، لأن مروان الذي أجراها لمعاوية كان أزرق العينين، فلقب بالأزرق، وكان إجراؤه لهذه العين بأمر معاوية لمّا ولاّه المدينة ــ وأطال الحديث حولها.

بئر البصة :(بضم الموحدة وتخفيف الصاد المهملة كما هو الدائر على ألسنة أهل البلد.

وهذه البئر قريبة من البقيع على طريق قبا، في حديقة نخل على طريق بطحان، وماؤها أخضر.

وهناك بئر أخرى صغيرة.... ورجح السيد أنها الصغرى.. وقد ابتني بقرب الصغرى مسجد واتخذ لها درج ينزل بها إليها، وقد شربنا من مائها مراراً)[2] .

بئر زمزم : وهي قريبة من السقيا على يمين الطريق، حتى زعم بعضهم أنها بئر السقيا، وهي بئر مليحة، في حديقة نخل، حولها بركة وبناء.

وسميت زمزم تشبيهاً بزمزم في التبرك بها ونقل مائها للآفاق، وقد زرتها والحمد لله، وكانت إذ ذاك ملكاً لبعض أصحابنا من المغاربة المجاورين، فأطعمنا من تمر حديقتها وسقانا من مائها.

وقال في موضع آخر: هي إحدى الآبار المنسوبة للنبي صلىٰ الله عليه

---

(١) : ١ /٢٦٥.

(٢) : ١ /٢٦٧.

وسلم، واشتهرت بزمزم تشبيهاً لها بزمزم المكّية لبركتها واستشفاء الناس بها، وهي في غربي المدينة مما يلي الحرَّة، وماؤها عذب[1] ...

بئر السقيا : والسقيا في آخر منزلة النقا على يسار السالك إلى بئر علي، وهي بالحرة الغربية، وحولها بركة عظيمة لورود الحاج أيام نزولهم هناك)[2] .

بئر اليسيرة :(ـ من اليُسْر ضدّ العسر ـ وتعرف الآن ببئر العهن، بكسر فسكون.

وهي معروفة في العوالي مليحة جداً، منقورة في الجبل، وعندها سدرة...

وقد زرتها وهي في عوالي المدينة قريب من مسجد بني قريظة، وعلى بابها حديقة كبيرة حسنة، ملك لبعض المغاربة)[3] .

بئر غُرْس :(ـ بضمٍّ فسكون.. بئر شرقي قُبَا على نصف ميل من مسجدها إلى جهة الشمال، وقد جُعِل لها درج ينزل إليها منها، وحولها حديقة، وبجانبها مسجد، وقد زرتها)[4] .

بئر رومة : وهي بأسفل العقيق قرب مجتمع الأسيال، ولم أزر هذه البئر إلا مرة واحدة لبعدها، والطريق إليها على مساجد الفتح. ثم يعدل يساراً إلى ناحية مسجد القبلتين، ثم يمر تحته أسفل منه قاصداً العقيق فهي هناك، وبقربها مزارع[5] .

بئر حاء :(وهي اليوم في حديقة صغيرة من سور المدينة(؟) شماليه، بينها الطريق، وأقرب أبواب المدينة إليها باب البقيع، وهي بينه وبين باب الشامي)[6] .

---

(١) : ١ /٢٦٩ و٢ /٢٨٨.

(٢) : ١ /٢٦٩.

(٣) : ١ /٢٦٩.

(٤) : ١ /٢٦٩

(٥) : ١ /٢٦٨.

(٦) : ١ /٢٦٨.

بئر بضاعة : بضم الموحدة على المشهور، وهي في حديقة كبيرة ذات نخل، أقرب أبواب المدينة إليها باب الشامي، غربي الخارج منه قليلاً، وحولها مسجد وبركة ماء)[1] .

بئر أريس : هذه البئر في حديقة غربي مسجد قبا قريب، وماؤها غزير، يسنى منه إلى بركة في الحديقة. وفي هذه الحديقة أنواع من الفواكه والأشجار وبها عنب كثير.

وأهل المدينة يقصدون هذه الحديقة للقائلة فيها والتفرج، وقد جعل لمائها نفقا من أسفلها على وجه الماء حتى يتصل ماؤها بالبئر التي يقال لها العين الزرقاء[2] .

ماء آبار المدينة، قال :(كان في رباط الشيخ عبدالقادر الجيلاني بقرب باب النساء بينه وبينه ثلاث خطوات، بئر حلو على خلاف المعتاد من آبار المدينة، فإنها مالحة، فبينما أنا أتحدث مع نقيب الرباط : متى جرى ذلك؟ فقال لي : إنما حدثت فيها الحلاوة منذ أعوام قريبة، وكانت كغيرها من الآبار فأصبحت ذات ليلة وهي حلوة ولا يعلمون السبب في ذلك، فقلت له : لعل مجرى العين قد انخرق فيها؟ فقال : ليس بالقرب منها مجرى للعين. والله أعلم بحقيقة ذلك)[3] .

---

(١) : ١ /٢٦٧.
(٢) : ١ /٢٦٥.
(٣) : ١ /٢٧٦.

أهل المدينـــة كما وصفهم العياشي

أهل المدينة كما وصفهم العياشي

أطال الرحّالة العياشي الإقامة في المدينة في زيارته هذه. فقد دخلها في الليلة الثانية من شهر المحرم(١٠٧٤هـ)، وخرج منها إلى مكة في السابع عشر من شعبان من تلك السنة[1] . ولهذا فقد تحدث عن آثار المدينة وعن أهلها باستفاضة. وأحاديثه شيّقة وممتعة، يحسن إيرادها بنصها.

قال :(وأهل المدينة ــ زادهم الله خيراً وأوسع عليهم ــ أهلُ رفاهية وتوسع في المعيشة في زماننا هذا، وتغال في الملابس الفاخرة، وتزيّوا بزي الأعاجم في مآكلهم ومشاربهم وملابسهم، لكثرة سكنى الأعاجم بها، فإن بها طائفة كبيرة من عسكر الترك زاعمين أنهم مُعَدُّون لحراستها، وفي الحقيقة إنما يأكلون مال السلطان في غير شيء، فلا يغيثون ملهوفاً ولا يروعون ظالماً. وبها من الأعاجم أقوام كثيرون من الأكراد والترك وأطراف الشام، يشترون الحصص والجامكية، فيجلسون بالمدينة و يرتزقون بما يأتيهم من ذلك على حالهم التي كانوا عليها في بلادهم من التوسعة، فاقتدى بهم غالب أهل المدينة من أقو يائها.

وقد كانت المدينة في الزمان المتقدم معروفة بالقناعة حتى قال مالك بالكفارة والنفقات بالتفاوت بين المدينة وغيرها لقناعتها. فآلَ الأمر في هذا الزمان إلى خلاف ذلك، فصاروا أرفه الناس عيشاً، وأكثرهم في المآكل والملابس إسرافاً، أعني الكبراء منهم، وأما الفقراء وغالب المجاور ين ــ خصوصاً المغاربة ــ فهم على حالهم من الفقر والمسكنة.

ولقد أُخبِرْتُ أنَّ للنساء عليهم عادة يسمونها الشخشخة، وهو ما تشتري به المرأة ما تشتهيه من الأزهار، فربما بلغ ذلك ر يالاً في كل يوم[2] .

---

(١) : ١ /٢٨٤(؟).
(٢) : ١ /٣٠٢.

عادات أهل المدينة : وقال[1] : ولما استهل ربيع النبوي نظف الحرم الشريف وفرش بفرشه المعهودة، من الزرابي المبثوثة الحسان، التي لايوجد لها نظير إلا في بيوت الملوك، وغالبها يأتي من الهند من عند ملكها، وسُدّى بعضها حرير خالص ــ وكنت أتوقى الصلاة فيها ــ وطعمها من جيد الصوف الملون الذي لايكاد يفرق بينه وبين الحرير إلا ذو بصيرة، يفرش به المسجد النبوي القديم المسقف كله، وأخرجت الربائع التي فيها المصاحف العتيقة والأجزاء الحسان من وقف الملوك والكبراء وصفّفت في قبلة المسجد، وفتحت خزائن الكتب العلمية الموقفة بالحرم الشريف يستعير منها الناس للقراءة، وشرع الأئمة في القراءة والتدريس.

وكانت عادتهم إذا كان اليوم السابع عشر من ذي القعدة ــ ويسمونه الكنيس ــ جمعت بسط الحرم كلها وأدخلت في المخازن فلا يبقي في المسجد إلا الحصر، وأدخلت المصاحف التي في المسجد والسبحات إلى الروضة. وردّ كل من استعار كتاباً إلى صاحبه أو إلى ناظر الخزانة التي أخذ منها، واقتضي غالب الديون، وتفاصل الشركاء، وانتهى أمر غالب الأكرية، يتهيأون بذلك للموسم، لأنه في غالب الأمر مظنة ارتحال قاطن، وقدوم غائب، واجتماع الناس من الآفاق، واشتغال أهل المدينة بقبض الأقوات والجرايات التي تأتيهم من الأوقاف، وذهاب من يريد النسك إلى مكة، أو من يريد التجارة، فلا يبقى في المدينة إلا القليل من الناس، ويكنس الحرم الشريف في ذلك اليوم، وفيه يكنس البيت العتيق بمكة أيضاً، ويفعل فيها مثل ذلك.

وأيام الموسم عند أهل الحرمين فيها يجمعون غالب أمور معاشهم، فلا يتفرغ أحد لتدريس ولا عبادة إلا ما لابُدَّ منه، فإذا انقطعت أيام الموسم وذهبت الأركاب الواردة من الآفاق، ولم يبق بالحرمين إلا أهلها، رجعوا إلى معتاد حالهم، في الأمور الدينية من القراءة والتدريس وأنواع العبادات، والدنيوية من الفلاحة والتسعير في الأسواق وتصحيح المكاييل والموازين.

---

(١) : ١ /٢٨٤.

وأما أيام الموسم فلا سِعْرَ معلوماً، ولا مكيال وافياً، ولا ميزانَ صحيحاً، كلٌّ يفعل ما شاء، ولا يتكلم الولاة في شيء من ذلك، إلا أن يقع أمر مهمٌّ.

و يتنافس الناس في الخدمة في ذلك اليوم بنقل البسط وغيرها، و يعمل في ذلك الأمراء والكبراء العظام فمن دونهم. ولقد رأيت الأمير إبراهيم الذي كان أمير الحاج المصري، وهو من الأمراء الكبار، مُشَمِّراً عن ساقه، قد جمع عليه ثيابه، وقد كاد الغبار أن يواري بشرة وجهه، وهم يخرجون صناديق الكتب من الحجرة الشر يفة، وما كان يتولّى الخدمة هنالك إلاَّ مَنْ ومَنْ. ولقد جهدت أن أتشرف بشيء من تلك الخدمة فلم أقدر إلا على بسط الفرش في محالّها بعد وصولها إليها.

ولما قربت ليلة المولد الشر يف بولغ في تنظيف الحرم وتز يينه، وغسلت مصابيحه، وجعل فيها مائعٌ شديد الحمرة لا أدري ما هو، وألقي فوقه قليل ز يت طيب أخضر، فإذا توقد المصباح ظهر إشراق المصباح لشدة صفائِهِ وملاقاته لضوء النار، وأشرقت حمرة ذلك المائع لكونها ملاقية لصفاء الزجاج، فتصير حمرته كحمرة الياقوت، وذلك الخط من الز يت فوقه أخضر كالزمرد، وفوقه صفاء الزجاج يتموّج فيه ضوء النار، و ينعكس فيمازج أشراقةُ صفاءَ الز يت وخضرته، وصفاء المائع الأحمر وحمرته، فلا تسأل عن حسن ذلك المنظر وبهائه، وقد رتبت المصابيح في تعليقها ترتيباً حسناً لائقاً، وشكلت تشكيلاً بديعاً بين تر بيع وتدو ير، فيا له من منظر ما أبهجه، وليل ما أسرجه...

فإذا كان بعد صلاة العصر من اليوم الحادي عشر، أخرجت القناديل الكبار والحسك العظام من الحجرة الشر يفة، غالبها من النحاس المطلي بالذهب، وكل واحدة أعظم من قعدة الرجل العظيم، وصفت في صحن المسجد، ووضعت فيه الشموع الغليظة الصافية اللون، منها ما يزن نصف القنطار ومنها دون ذلك، وفي وسط تلك القناديل قنديل كبير من فضة خالصة، زنته أكثر من قنطار، فيه خمس حسك كبار من فضة مدور الشكل، فيوضع في كل حسكة منه شمعة، وتبسط البسط الرفيعة من جوانب القناديل من كل جهة، لجلوس الأمراء وأر باب المراتب، ولجلوس المنشدين، فإذا صليت المغرب أوقدت المصابيح كلها، والشمع

الذي في صحن المسجد، وأخذ الناس في الاجتماع، وأوقدت أربع مشاعل كبار، على أساطين معدة لذلك في صحن المسجد، واثنان في مقدمه، واثنان في مؤخره، فإذا صليت العشاء جلس الأمراء في الفرش المعدة لهم، كل على مرتبته، وجلس الشعراء أمامهم والمنشدون، وضربت خيمة قريبة من باب النساء، ووضعت فيها أنواع الأشربة الحلوة، فإذا امتلأ المجلس وغصَّ بأهله وجلس كل واحد في موضعه، قام المنشدون فينشدون من غرر القصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، ما انتخبوه وأعدوه لذلك الموضع بألحان عجيبة، وتراجيع متسقة، وبإزائهم جماعة يردون عليهم بأصوات حسنة، فيجيء السقاءون بأنواع الأشربة الحلوة فيسقون الأمراء، ثم المنشدين ومن معهم من أتباعهم، ثم سائر الناس، ثم يؤتى بأنواع الرياحين والأزهار فتوضع بين أيديهم أضعافاً، ثم تفرَّق أيضاً على الحاضرين، ثم يؤتى بأطباق من اللوز والسكر وأنواع الحلوى فتفرق أيضاً، وينثر ما بقي منها على عامة الناس، ولا يزالون كذلك حتى يمضي من الليل ماشاء الله، النصف أو قريب منه، فينصرفون.

رهذه الليلة من الليالي الغرّ المسترخص شراؤها بباقي العمر، لولا ما شانها من كثرة النساء في المسجد وإكثارهن من الولاول، إلا أن أكثرهن في مؤخر المسجد من قبة الشمع وما حولها إلى آخر المسجد(١) .

ومن عادة أهل المدينة أيضاً في كل ليلة جمعة أن يجتمع الناس بعد صلاة العشاء، في آخر أروقة المسجد النبوي الموالي لصحن المسجد، فيأتي جماعة من المنشدين فينشد كل واحد قصيدة أو قصيدتين بصوت رخيم وتطريب وتقسيم، والناس محدقون بهم، ولهم أتباع يردون عليهم، مثل ما تقدم في ليلة المولد، إلا أنهم لايحتفلون لذلك في ليلة الجمعة، كاحتفالهم لليلة المولد ولا قريباً منه)(٢) .

ومن عاداتهم يوم الجمعة الخروج للبقيع، ووضع الرياحين الكثيرة على القبور، خصوصاً المشاهد المعلومة، فيكون عندها أضغاث من الرياحين، ويؤتى به إلى الحجرة الشريفة أيضاً، ويلقى من طيقان الشبابيك التي داخلها، فلا يزال

---

(١) : ١ /٢٨٤ ـ ٢٨٦.

(٢) : ١ /٢٨٦ و٢٨٧.

هنـاك حتى يذبل و يذوي، فيخرج في كناسة الحجرة و يقتسمها الأغوات بينهم مع باقي الشمع الذي يوقد داخل الحجرة وما يتساقط من الطيب، فيجمعون ذلك فيهـدون منـه لأصحـابهـم والأكـابـر و يـبـعـثـون مـنـه إلـى مـن يهاديهم من أهل الآفاق(١) .

ومـن عاداتهم يوم الجمعة أيضاً أن يكنس المسجد النبوي كله. و يؤتى بأغطية مـن ديـبـاج أسـود مخـوص بـالـذهـب فـيـعـلق على أبواب المسجد، و يؤتى برايتين سـوداو يـن من ديباج مخوص أيضاً، فيركزان عن يمين المنبر وشماله، وتكسى درج المنبر مـن أعـلاه إلى أسـفـلـه ديـباجاً من ذلك النعت، و يعلق أيضاً على أبواب الحـجـرة الـشـر يفة. فإذا كان قبل الزوال بقر يب من ساعتين طلع المؤذنون على المآذن ، فـيـبـتدىء مؤذن الرايسية(؟) بالذكر والصلاة على النبي صلى الله عليه وسـلـم وقـراءة آيـات مـن الـقرآن، فإذا فرغ تلاه صاحب السليْمانية على نحو من ذلـك، ثم لا يـزالـون كـذلـك يـتناوبون الذكر والصلاة على النبي صلى الله عليه وسـلـم والـتـلاوة عـلـى المآذن كـلـهـا إلى أن يخرج الإمام بأثر الزوال، يقتسمون الـوقـت بـذلـك، فـإذا قـرب دخـول الإمام ، قام أحد المؤذنين على سر ير المؤذنين فـيـنـشد ما شاء الله، فإذا دخل الإمام ورقى المنبر أذن المؤذنون دفعة واحدة داخل المـسـجـد عـلـى الـسـر يـر الذي وسط المسجد، وكيفية أذانهم أنه يبتدىء رئيسهم فـيـقـول : الله أكبر الله أكبر، فـيقوله الآخرون بعده دفعة واحدة، ثم يقول : أشهد أن لا إلـه إلا الله مثنى، فيقولونه أيضاً بعد فراغه دفعة واحدة، وهلم جرًّا إلى آخر كلام الأذان(٢) .

وأمـا الخـطـابة فهي كالإمامة موزعة بين فقهاء المدينة، لكل واحد مقدار معلوم مـن الأيـام عـلـى قدر حصته التي يأخذها من جامكية الخطباء، فنهم مقلٌّ ومكثر، وذلـك إما بالوراثة من أسلافهم أو بالشراء من الولاة وهو الغالب، فنهم من تدور نـوبـتـه فـي كـل شـهـر مرة، ومنهم من لا تصل إليه إلا مرّة في السنة، ومنهم بين ذلـك عـلـى حـسب أنصبائهم في المال المأخوذ على ذلك.

---

(١) : ١ /٢٨٧.
(٢) : ١ /٢٨٧.

ومن عادة المدرسين في المدينة تعطيل القراءة في المكاتب والتدريس يوم الثلاثاء ويوم الجمعة، ويقرأون فيما سوى ذلك من الأيام. خلاف عادتنا في المغرب من التعطيل يوم الخميس والجمعة، فكنت أيام إقرائي بالحرم الشريف يكلفونني القراءة يوم الخميس، فيشقُّ ذلك عليَّ لكونه خلاف المعتاد لدينا، ولخروجنا في ذلك اليوم إلى زيارة أُحُدٍ أو غيره من المشاهد، فطالبتهم كل المطالبة أن نعوض الخميس بالثلاثاء، فأبوا كل الإباءة، فجريت على عادتهم كما قيل:

إن جئت أرضاً أهلها كلهم
عُورٌ فغمِّض عينك الواحده

ولا أدري ما السبب في تعطيل الثلاثاء لديهم، والخميس والجمعة سببهما شهير.

ومن عادتهم في إقامة الصلوات الخمس في الحرم الشريف تقديم الصلوات في أول الوقت ما عدا الصبح للحنفي، فيؤخره إلى قرب الإسفار، فيصلون الظهر أول ماتزول الشمس، وما يقيل غالب الناس إلا بعد الصلاة، فيذهبون بعد الصلاة إلى منازلهم لنوم القائلة، وكان ذلك يشق على الغرباء قبل اعتيادهم لذلك، فتكاد صلاة الظهر تفوتهم في المسجد، لأنهم لا يتأهّبون لها إلا بقدر الأذان، وليس بين الأذان والصلاة قدر يسع التأهب، فمن لم يتأهب للصلاة قبل دخول وقتها فاتته في الجماعة غالباً، وذلك خلاف السنة في تأخير صلاة الظهر إلى ربع القامة.[أو أزيد للإبراد في شدة الحرّ][(1)] ...

وأول من يصلي من الأئمة الشافعي ثم الحنفي إلا في صلاة المغرب، فيتقدم الحنفي لضيق وقته عنده كالمالكي، ولا يؤم بالمدينة من الأئمة سواهما من أرباب المذاهب إلا في الجمعة، فيصلي صاحب النوبة على أيّ مذهب كان، فيتناوب الإمامان الصلاة في المحراب النبوي، فإن صلى أحدهما فيه صلى الآخر في

---

(1) : ١ /٢٨٩ وما بين المربعين من زيادات«الناصرية».

المحراب الذي على يمين المنبر الشريف، وأما المحراب العثماني الذي في الصف الأول فلا يصلى فيه إلا في بعض أيام الموسم إن كثر الناس(١) .

ثم قال : ربما صلى بعض المالكية في بعض الأوقات بالناس بتعذر غيره ممن هو أهل أو إنابته له، فيصلي على هيأة الشافعي من الابتداء بالبسملة وقبض اليدين ورفعهما للركوع والرفع منه، وفي أول كل ركعة وتثنية التسليم جهراً وتأخير القنوت عن الركوع والجهر به.

وكان بعض المالكية ينكر ذلك على فاعله فيقول : إما أن يصلي الصلاة على مذهبه أو يدع الإمامة، وكنت أنا أخفف الأمر في ذلك فأقول : قد علم من الشارع التحذير من الأمور التي تقع في المخالفة وتغر الصدور خصوصاً في أمور الدين.

ثم استرسل في الكلام في هذا الموضوع بإيراد الأمثلة والأدلة.

ومن عاداتهم في الصلاة على الجنائز إدخال الجنازة إلى الحرم الشريف، فيصلى عليها بالمسجد، ثم يمر بها أمام الوجه الشريف و يوقف بها وُقيفةً، ثم يذهبون بها إلى محلها من البقيع أو غيره(٢) .

ومن عاداتهم في الإملاكات أن يكون عقد النكاح في المسجد الحرام [فيأتي أكابر المدينة من أرباب المراتب والمناصب، والخطيب، فيجلسون صفَّيْن، من المنبر إلى الحجرة الشريفة، صفٌ مستقبل القبلة، وصفٌ مسند ظهره إلى جدار القبلة، وجلس عن يسار الشيخ كبير الخطباء بالمدينة أحمد البَري، و بإزاء الخطيب المتعاقدان، فشرع في الخطبة، وأطال الثناء على الله بما أهله، وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم].

ولقد حضرت إملاك هندي قدم من مكة في الرجبية مع الشيخ عيسى كان

---

(١) : ١ /٢٩٠.

(٢) : ١ /٢٩٥، وأما الجملة الأخيرة فهي من زيادات : الناصرية ج ٢/٥٩.

بينهما صحبة. فأراد العقد لولده مع ابنة رجل آخر من كبار تجار الهند، فلما كان وقت العقد ذهب بي الشيخ معه وكرهت خلاف أمره، وما كنت أحب حضور محافل أهل الدنيا المشوبة بأنواع من التصنيع والمباهاة خصوصاً في ذلك المحل الذي حق الإنسان فيه أن يخضع ويخشع... فجلس الشيخ مسنداً ظهره للمنبر النبوي وجلست بإزائه، وجلس أرباب المراتب من العلماء والخطباء وأكابر الناس ثم ذكر المتعاقِدَيْنِ، وأطال الثناء عليهما إلى أن ذكر العقد وأشار إلى المتعاقدين، ورضيا بذلك كل ذلك بلسان الدلو(؟) وصوت جهوري ، وذلك الذي أنكرته مع المبالغة في الثناء على المتعاقِدَينِ بما أكثره زُوْرٌ بحضرة أشرف الخلق وفي روضة الجنّة، فصغرت نفسي عندي، وتضاءلت، وودت أنّي لم أحضر ذلك المجلس، ولو كنت أعلم أنَّ صورة المجلس على هذا الوجه ما حضرته.

ثم أُتي بأطباق الرياحين ووضعت بين الصفين، وأطباق من اللوز والسكر وفرق ذلك على الحاضرين، وقام المنشد فأنشد قصيدة أو قصيدتين في مدح النبي صلىٰ الله عليه وسلم فافترق المجلس، وقام الحاضرون إلى المتعاقدين يهنونهما، فانسللت وكان ذلك ضحى وذهبت. وهذه صورة إملاك كل ذي وجاهة ورياسة من أمير أو تاجر أو صاحب خطّة، وأما غيرهم فعلى حسب ما يتفق لهم.

فإذا كان ليلة الدخول أُتي بالرجل ومعه جماعة كبيرة من أصحابه وأقاربه، ومعه الشموع حتى يوقف على باب المسجد بعد العشاء الأخيرة، فيدخل و يسلم على النبي صلىٰ الله عليه وسلم و يدعو فيخرج، ثم يذهب به كذلك يزفونه إلى بيت المرأة في دار أهلها، عكس المعتاد في كثير من البلاد أن المرأة هي التي تُزفُّ إلى زوجها، وأن الدخول في بيت الزوج، وعند هؤلاء لما كانت العادة الدخول بالمرأة في بيت أهلها صار الزوج هو الذي يُزَفُّ، فإذا أصبح الزوج ذهب من بيت الزوجة إلى بيته، وأخذ في إطعام الناس طعام الوليمة، وجاء الناس لتهنئته، وفي الليلة المقبلة تأتي الزوجة من دار أهلها إلى دار الزوج، ولكل قطر عادة ولكل قوم سادة، وعادات السادات سادات العادات[1] .

(١) : ١ /٢٩٦.

نساء المدينة :(ونساء المدينة لهن عوائد مذمومة في الخروج إلي التنزُّه والتفرج في البساتين، والأماكن المنفسحة، و يسمون ذلك القايلة(؟) فيقولون : نقيِّل اليوم في الموضع الفلاني، وخروج الرجال لذلك أكثر، فتكلف المرأة زوجها في تلك من النفقة ما لاقدرة له عليه)(١) .

وقال أيضاً عن النساء في المدينة : .. (بيد أن نساءهم يبالغون(؟) في الستر الظاهر بحيث لايبدو من المرأة ولا مغرز إبراة، حتى من أطرافها، يلبسن الخفاف السود، و يتبرقعن، و يسدلن من أزرهن ما يكون نهاية في الستر، إلا أنهن يكثرن من الطيب عند الخروج، فيوجد عرف الطيب منهن من مسافة، فيكون ما سَتَرْنَهُ ظاهراً أبْدَيْنَهُ باطناً. وبهذا فسر بعض العلماء قوله صلى الله عليه وسلم :«رُبَّ كاسية في الدنيا عارية في الآخرة»(٢) .

من عادات أهل المدينة :(ولأهل المدينة ولوع وغرام شديد بأكل اللحم، زاعمين أنهم يستضرُّون بتركه لحرارة أبدانهم و يبسها، فيحصل لهم الترطيب به، فإذا أكلوا غيرَهُ حصل لهم يُبْسٌ في الطبيعة، حتى أن من نسائهم من لايطبخ غداءً ولا عشاء إلا أن يكون لحم، و يقلن : نحن لانعرف الطبخ بلا لحم، ولو أدّى ذلك إلى بقائهم بلا عشاء ولا غداء. وقد أخبرني بعض أصحابنا أن من أهل المدينة من يشتري العبد فلا يكون له شغل إلا شراء اللحم، فيدور عليه في المدينة وأسواقها وفي العوالي وقباء، في زمن قلته، فلا يرجع إلى سيّده حتى يحصله، أو يدور المدينة ونواحيها كلها، فإذا حصله كان ذلك شغله في ذلك اليوم، ولا يستعمله في غيره، لأنه إنما تملكه بقصد ذلك)(٣) .

الثروة والتجارة في المدينة : وقال : و بعد رحيلهم ــ يعني المصريين ــ من المدينة بثلاثة أيام نزل الركب الشامي، ولقوا من الحرِّ في الطريق شدة عظيمة كالذي وقع للمصري قبلهم أو أشد، فماتت منهم جملة كثيرة في الطريق،

---

(١) : ١ /٢٥١.
(٢) : ١ /٢٤٥.
(٣) : ١ /٣٠٢.

وجملة بعدما وصلوا إلى المدينة. وأقاموا بالمدينة المشرفة عشرة أيام... ونصبت الأسواق، واتسعت الأرزاق، وقسمت الصدقات، وكثرت الإنفاقات، وبالجملة فلا ينتفع أهل المدينة بركب انتفاعَهم بأهل الشام، فإنهم يقدمون بتجارات كثيرة، وطعام وزيت وأشربة يبيعونها في المدينة عند قدومهم، ويدّخرون ما بقي إلى الإياب فيبيعون كل ذلك بالمدينة.

ولأهل المدينة عند قدومهم عادة مذمومة، وهي أنه لا تبقى مخدرة من النساء إلا خرجت تباشر البيع والشراء بنفسها، ولهن على الرجال في ذلك الوقت إتاوة يؤدونها لهن، فيبتعن بها ما أحببن من اللائق بهن من طيب وشبهه، وربما لا تقنع إحداهن من زوجها إلا بالخمسين ديناراً فما فوقها. فقد حكي أن امرأة بعض المدرسين بها، أعرفه، طلبت منه في ذلك اليوم ما تخرج به إلى السوق على العادة، فدفع لها عشرة دنانير، فاستقلتها وذهبت من شدة الغيظ فرمت بها في المرحاض (١) وأتلفتها عليه، وقالت: أمثلي يخرج إلى السوق بهذا المقدار، فلم يملك من أمره إلا أن ذهب وتسلف خمسين ديناراً فدفعها لها (٢).

---

(١): حاشية مكتوبة بالقلم: (هذه الدالة التي لنساء المدينة على أزواجهن قديمة في الأوس والخزرج، سكانها الأقدمين، واقتدى بهن نساء المهاجرين بعدما كنّ كالميت بين يدي... بمكة عند أزواجهن، يشير إلى ذلك قصة عمر مع زوجته وقصة حفصة مع النبي صلى الله عليه وسلم كما في «البخاري» وغيره.

(٢): ١ /٢٤٥.

عادات أهل المدينة في المعاملات التجارية

عادات أهل المدينة في المعاملات التجارية

(ومن عاداتهم في التعامل أنهم يسمون الأربعين مايديّاً[1] حَرْفاً[2] فيقولون : عشرة أحرف وعشرون حرفاً[2]، يعنون كل أربعين قيراطاً من قراريط الفضة المسكوكة يعد حَرْفاً، كقولنا في بلادنا لهذا المقدار مثقالاً، ويقولون للدينار من الذهب المسكوك شريفياً أو سلطانياً.

ويقولون للريال المسكوك من الفضة ريالاً وقرشاً. قال ابن ناصر : [قلت : وهذا خلاف عُرْف مصر في القرش، فإنه عندهم أقل من الريال][3] .

ويقولون للقيراط المسكوك مُحَلّقاً [وبمصر يقولون له فضة وقائديّاً].

ويقولون للصاع الذي به التعامل ربْعِيّاً، ولجزءيه كيلة[4]، ويسمون الحروف[5] المتقدمة إذا ذكرت مجموعة ذهباً فيقولون : عشرون ذهباً أو ثلاثون ذهباً يعنون عشرين حَرْفاً[5] من غير قصد إرادة الذهب، إذ التعامل بالذهب إنما هو بالدنانير وأجزائها.

وقد وقعت بيني وبين بعض مدرسي المالكية مناظرة بسبب هذه المسألة، أعني تسمية الحرف بالذهب، وذلك أن بعض الموثقين كتب في معاملة بين شخصين : أربعين ذهباً أو ثلاثين ذهباً ــ يعنى الحروف ــ فلما كان وقت الاقتضاء قال له : إني آتيك بالصروف التي هي العدة المذكورة من القراريط، قال له المدرس : لايحل ذلك إلا مع المتاجرة لأن هذا صرف مؤخر، فإن الذي في ذمتك هو الذهب، وأنت الآن تريد دفع الفضة عنه، فهو صرف ما في الذمة

(١) كذا في الناصرية : ٢ /٦٠.

(٢) كذا في «الناصرية»، وفي العياشية(صرفاً) وفي العياشية :(الصروف).

(٣) زيادة من«الناصرية» ٢ /٦٠.

(٤) في الأصل(ركيلة).

(٥) في الأصل(الصروف) و(صرفا)

ولابُدَّ فيه من صرف هنا، إذ المراد بلفظ الذهب هنا العدّة المذكورة من الفضة باتفاق من المتعاملين وغيرهما من سائر الناس، حتى المدرس بنفسه لاينازع في ذلك، والعبرة إنما هي بمدلول اللفظ المفهوم منه عند المتعاقدين لا بمدلوله لغة، فإن العرف الخاص نقل هذا اللفظ من مدلولِهِ لغةً إلى مدلول آخر معروف في العرف الخاص لاينازع فيه أحد من أهل البلد، فلو أرادوا مدلول الذهب لغة(١) عنه باللفظ الدال عليه في عرفهم كما قدمنا. ويفيد ذلك كون هذا المقدار من الفضة، وهو الأربعون قيراطاً، ليس في الذهب فَرْدٌ يقابله من أفراد الذهب المسكوك الذي يقع به التعامل حتى يصار إلى أنه هو المراد، فلو قلنا إن المراد الذهب لغةً لكان فيه جهالة، إذ لا يُدْرى أهي أربعون ديناراً أو أنصاف الدينار أو أرباعه، ولأن كل ذلك لايقابل الأربعين قيراطاً التي هي المرادة، فلو كان في التعامل ذهب مسكوك يروج رواج الأربعين قيراطاً لتوهم أنه المراد. فلما بلغ ما قلت إلى ذلك المدرس لم يذعن للحق، فطلب الاجتماع بي، وجاءني، وذكرت له ماتقدم فلم يجد مدفعاً إلا أن قال : انظر ما تتقلد من ذلك فإني أخاف أن يكون ذلك ذريعة للناس إلى التعامل بالربا. فقلت له : إذا وضح الحق فلا يترك مخافة الوقوع في الباطل، فإن ذلك إنما يكون مع التباس الأمر واشتباهه فيحتاط الإنسان لدينه، فيترك ما لا بأس به حذراً مما به البأس، وأما بعد تمييز الباطل بصفته المعلومة شرعاً وتمييز الحق جانباً منه بوصفه المعروف حتى لايخاف التباس الحق بالباطل، فلا معنى لترك الحق إذ ذلك لأجل توهم متوهم.

ثم انجر بنا الكلام إلى مسألة صرف الريال بالمايدية وهي القراريط المذكورة من دون وزن بل بالعدد،وقد جرى على ذلك عمل أهل الحجاز ومصر إلا القليل، وقليل ماهم، فقلت له : لو انضبط لهم مقدار معلوم من خمسين أو ستين من القراريط تكون في وزنها قريباً من وزن الريال، لخرجت عن مسألة«العتبية» من قول ابن القاسم في الدينار بعشرين قيراطاً، من الذهب، إذ لا فرق بين الذهب والفضة في ذلك، فلما خفف في دينار واحد في مقابلة عشرين قيراطاً فليكن كذلك درهم كبير من الفضة وهو الريال في مقابلة أجزاء

---

(١) كذا ولعل الصواب :(لعبروا عنه).

كثيرة من الفضة، نحو الأربعين أو الخمسين أو الستين إذ لا عبرة بكثرة العدد وقلته مع اعتبار التفاوت اليسير في الوزن، وانفراد إحدى الجهتين بواحدة. ولكن لما لم ينضبط العدد المدفوع فيه الريال، فتارة يكون خمسين وتارة إلى ستين، كان في ذلك مكايسة ظاهرة، وخرجت المسألة من بابها المعروف الذي سبب الرخصة مع الضرورة. فأبى من قبول ذلك ولو مع الانضباط حتى أطلعته على كلام شيخ مشائخنا سيدي العربي الفاسي في مسألة الريال والرد فيه من دراهم وقته، أو المبادلة، وقد حقق ذلك كل التحقيق، فلما رآه، رجع إلى مثل قوله الأول، والجواب عنه ما قررنا أولاً [1].

وقد ذكر العياشي ــ في موضع آخر من رحلته [2] :(وعدد المثقال عندهم أربع وعشرون موزونة، ويقولون للمثقال الأربعيني مثقال شريفي، نسبة للأمير الشريف صاحب سجلماسة، وهذه البلاد في طاعته) انتهى. يعني بكلمة(عندهم) : أهل توات من بلاد المغرب.

الأسعار في المدينة :

وقد كانت الأسعار أيام مجيئنا المدينة شديدة، فكان القمح ثلاثة آصع بريال، والصاع عندهم يقرب من ثلاثة آصع بصاع الزعوة(؟) وأما التمر فنحو أربعة آصع بالريال، والشعير ليس بينه وبين القمح إلا يسيرُ تفاوت، خلاف المعهود في غالب البلاد، والعسل اشتريت رِطْلاً منه للدواء بقريب من ثلث ريال، والسمن دون ذلك، وأما الفواكه فكانت في أيامها ووسط إبّانها العنب بثلاثة مايدية للرطل، وقد رأيت رمانة في آخر الإبان بيعت بخمس مايدية [3] وفواكه المدينة مع غلائها في غاية الجودة خصوصاً عنبها ورطبها.

وأما الخضر فأكثرها وجوداً الجزر والباقلا والملوخية والبامية والبصل واللفت،

---

(١) : ١ /٢٩٧.
(٢) : ١ /٢٠.
(٣) : ١ /٣٠١.

والخضر البرية ليس فيها إلا الخبز، ولا يأكل أحد في تلك البلاد السمن القديم والشحم القويّ إلا أَضَرَّ به مالم يكن حديث عهد بالبلد، فإذا طَالت إقامتهُ في البلد تطبع بطبعهم.

ولم تنزل الأسعار على ما تقدم من الغلاء، إلى أن هجم الشتاء وقرب زمان الربيع، أرخت السماء عزاليّها بالأمطار الغزيرة المتوالية ، وسالت الأودية، ولم يأت أحد من ناحية إلا حدّث بالجود، فلانت الأسعار وكثر العبر(؟) والجبن في الأسواق، وكان الجبن أول ما بدا يباع بثمانية مائدية للرطل، فلم تمض إلا مدة يسيرة حتى صار يباع بمائديين، وكثر اللحم السمين، وكان قبل ذلك هزيلاً جدّاً، ومع هزاله قل ما يوجد[1]...

(١) : «العياشية» : ١ /٣٠٢.

من عـادات أهـل المـدينـة

من عادات أهل المدينة

ولأهل المدينة موسم كبير في شهر رجب، يحتفلون فيه لزيارة حمزة والشهداء (رضي الله عنهم) يأتي الناس إليه من أقطار الحجاز، من مكة واليمن والطائف والينبع، فيحشر هنالك خلائق لايحصون، يقاربون ما يجتمع في موسم الحج، ويخرج أهل المدينة إلا القليل، بأولادهم ونسائهم، ويخرجون معهم المضارب الحسان والخيم الكبار، ويخرج أمراء المدينة وعسكرها، وتنصب الأسواق العظيمة هنالك، يخرجون من أوائل رجب، و يتلاحق الناس كل على قدر حاله. فيتكامل خروجهم في اليوم الثاني عشر، وهو اليوم المشهود عندهم و يوم الزينة، فلا يبقى بالمدينة إلا أهل الأعذار ومن شاكلهم، ويحصل هناك في تلك الليلة من أنواع اللهو والطرب واللعب أشياء، والرمي بالمدافع والمحارق، و يبيت الناس طول ليلهم و يومهم في القراءة والزيارة حول القبر، و يوقد هنالك من الشمع شيء كثير، وأصحاب شيخنا القشاشي هم المتولون لوظيفة القراءة حول القبر، لا تنقطع القراءة الليل بأجمعه والنهار بتمامه، وكبيرهم شيخنا الملا إبراهيم (رضي الله عنه) معهم لايفارقهم في ذلك المحل. وكيفية القراءة، أن تجتمع جماعتهم كلهم، فيبدأ أحدهم فيقرأ جزءاً و يسمع الباقون، فإذا فرغ من حزبه أخذ الذي يليه في القراءة والآخرون يستمعون، ثم كذلك سائر الليل والنهار. وحكي لي أن بعض الفقهاء بالمدينة كان ينكر على أهل المدينة خروجهم إلى أحد في رجب و يقول لهم : إن ذلك من البدع المذمومة لما يحصل في ذلك من أنواع اللهو والسرف في المطاعم وغيرها، والتكلف في النفقات، والخروج من المدينة بالأهل والأولاد والخيم، الشبيه بشدّ الرحل، بل هو مع ما في ذلك من التشبه بمواسم الحج في الهيئة واعتقاد القربة، واعتياد يوم في السنة إلى غير ذلك من الأمور التي لا توافق ظاهر الشرع، وكان ذلك الفقيه لايخرج معهم إذا خرجوا، و يشدّد النكير عليهم في ذلك، فبينما هو ذات يوم من الأيام التي تهيأ الناس فيها للخروج جالس في الروضة أو قريب منها، إذ غلبته عيناه فرأى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يدخل ويخرج في الحجرة، و يقوم و يقعد، كفعل متهيّىء لسفر، وأثاث

السفر معلّقة بين يديه. فقال له : يا رسول الله ما هذا الذي أرى؟ أتريد الانتقال عنا والخروج من المدينة؟ قال : لا، إنما نريد الخروج لزيارة عمنا حمزة مع أهل المدينة، أو كلاماً هذا معناه. فانتبه الفقيه من نومه، وتهيأ للخروج مع الناس، فعجبوا من ذلك وسألوه فأخبرهم بذلك)[1] .

من عادات أهل المدينة أيضاً قال :(وأهل المدينة يخرجون إلى هذه المساجد ـ مساجد الفتح ـ لقصد التفرج في أيام كثيرة، ولهم يوم معلوم في السنة يخرجون إليها بالأخبية والأطعمة الكثيرة، فيبيتون بها في لهو وطرب، وهو يوم النصف من شعبان. وقد خرجنا مرَّة لزيارة المساجد فوجدنا الأعلى منها مملوءاً نساء، ولم نتمكن من الدخول إليه، وهن يطبخن فيه أنواع الأطعمة)[2] .

ومن عاداتهم بمكة والمدينة التهنئة بالشهر أيّ شهر كان، خلاف المعتاد لدينا بالمغرب، فإن التهنئة عندنا إنما تكون بالأعياد وما شاكلها. ولديهم لابُدَّ من التهنئة في أول يوم من كل شهر، فيذهب كل واحد إلى من له عليه حق بولاية أو شيخوخة أو صحبة حتى يهنئه بالشهر في منزله، ولله در القائل :

إن الأهــلَّــة فــي الــسماء مــنــاجــل
بــطــلــوعــهــا تــتــحــصّــد الأعــمــارُ

أبــدًا يُــهَــنِّــئُ بــعــضُــنَــا بــعــضــاً بهــا
وطــلــوعــهــا بِــأُفُــولــنَــا إنْــذارُ

من عادات أهل المدينة أيضاً : وقال[3] :(وسيل العقيق عند أهل المدينة من أعظم المنتزهات من سالف الدهر، ولشعرائهم الأقدمين فيه أشعار كثيرة.

وقد حضرت بالمدينة سيله ثلاث مرات، فخرج الناس على طبقاتهم ونصبت الخيام والمضارب بحافتيه، وطبخت الأطعمة الكثيرة مع سرور ولهو وطرب، وأقاموا

---

(١) : ١/ ٢٥٤/ ٢٥٥.
(٢) : ١/ ٢٥١.
(٣) : ١/ ٢٧١.

به يوماً أو يومين، وقد سال مرة سيلاً عظيماً منع الرفاق الواردين من مكة للرجبية من الوصول إليها إلا بعد مدة، وقد حضرني أبيات ونحن على شاطئه مع جملة من أصحابنا أولها :

جرى العقيق ودمعي كالعقيق جرى
فلا تسل سائلي عما هناك جرى

(٨ أبيات)[١] .

من عادات أهل المدينة(النخاولة) : لهم عادة في كل يوم خميس غالباً يأتون إلى مشهد السيد إسماعيل من أول النهار، و يطبخون هنالك طعاماً كثيراً، ويجمعون رجالاً ونساء بأولادهم، وفي الغالب يأتون لختان أولادهم، فإن من له ولد يريد ختانه لا يختنونه إلا في ذلك المكان، وربما جاؤوا لغير ختان بل لمجرد الزيارة وإطعام الطعام، ولا يحضر معهم غيرهم. وغالب ما يطبخون هناك الأرز والهريسة باللحم.

وصفة طبخ الهَريسة أن يُجْعَل القمح في المطبخ ويجعل معه اللحم، و يطبخ حتى يفارق اللحم العظم فتزال العظام، و يبالغ في طبخ اللحم مع القمح حتى يطيب القمح و ينزلع، فيأخذون عصيّاً شبه المغارف عراض الرؤوس، فيلوكون ذلك به حتى يختلط اللحم مع القمح و يصير مثل العجين، فيأخذونه في الأواني و يصبون عليه السمن، وهي عند أهل الحجاز من أشهر الأطعمة، وهي قوية، إذا شبع منها الإنسان قد لا يشتهي الطعام يوماً وليلة[٢] .

الزيارة الرجبية : جرت عادة أهل المدينة بزيارة قبر سيدنا حمزة رضي الله عنه كل يوم خميس، وربما باتوا هنالك ليلة الخميس في غالب الأحوال... ولا أعلم لاختيارهم الزيارة في يوم الخميس سبباً إلا أن يكون ما ورد من أن الأموات يعلمون بزائريهم يوم الجمعة، و يوماً قبله و يوماً بعده، فلما كان يوم الجمعة يضيق المشي فيه بسبب الاشتغال بمقدمات الصلاة وزيارة البقيع، و يوم

---

(١) : ١ /٢٧١.

(٢) : «العياشية» : ١ /٢٧٤.

السبت لزيارة قبا، فلم يبق إلا يوم الخميس...

ثم ذكر أن المشهد عليه قبة وصفها بالإتقان والعلو، وأن الباب مصفح بالحديد.

ومعروف أن بناء القباب على القبور من الأمور المحرمة شرعاً، وقد طهرَّ الله هذه البلاد المباركة من جميع البدع والخرافات والأمور المحرمة بانضوائها تحت الحكم السعودي الميمون.

وذكر أن حول المشهد بناء متسع، فيه بئر، وفيه أخلية للوضوء، متصلة بالسطح... وفي خارج المشهد بئر أخرى كبيرة، وبإزائها صفة المسجد، وتحته ماجل ماء، يهبط إليه بدرج.

وباب المشهد في سائر الأيام مقفل لايفتح إلا يوم الخميس، يأتي القيِّم من المدينة بالقصد لذلك.

قال : ولما كان أول رجب جعل الناس يقدمون من أقطار الحجاز، كمكة والطائف واليمن ونجد وجدة وما والاها من أطراف اليمن لشهود الرجبية، وزيارة سيد الشهداء حمزة صلى الله عليه وسلم، فما من يوم إلا وتدخل فيه قافلة من مكة ونواحيها..

ولم يزل الناس يتلاحقون، فخرج أهل المدينة إلى أُحدٍ من اليوم الخامس والسادس من الشهر، ورجعوا في اليوم الثاني عشر، ولم يبق بالمدينة إلا القليل، وخرج العسكر لحراسة الناس في الطرقات من المدينة إلى أُحد.

وقال : [٢] وبعد الرجوع من أحد نزل الوافدون في المدينة ينتظرون الرجبية وهي ليلة سبع وعشرين منه، ليلة المعراج، وقد وفد خلق كثير من الأعراب. وكانت بالمدينة سوق عظيمة، وامتلأ المسجد وجوانبه، فما من يوم إلا و يزداد الخلق فيه كثرة.

(١) : ١ /٢٥٣ ــ ٢٥٥.

(٢) : ١ /٣١١.

فإذا كانت الليلة السابعة والعشرون تكامل حشر الناس، فمن لم يدخل إلى المسجد من قريب من العصر قلّما يجد موضعاً لصلاة المغرب والعشاء، فيغص المسجد بمن فيه، و يفتح الحرم طول الليل، و يبيت الناس في ذكر وقراءة وصلاة، كل على حسب ما يسنح له إلى الصباح، فإذا أصبح أخذ الأعراب في التوديع، فيسمع لهم حنين كحنين الإبل في المسجد، وصياح وصراخ، رافعين أصواتهم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والاستغاثة به، فيرق قلب سامعهم، ويحن و يشفق لهم على جفائهم وجهلهم، فلا يأتي مساء ذلك اليوم حتى لايبقى بالمدينة منهم إلا القليل....

ولما استهل شهر شعبان، أخذت القوافل في الرجوع إلى مكة، ورجع غالب من جاء من أهلها، ولم يبق إلا القليل ممن يريد شهود رمضان بالمدينة(١) .

الصحة في المدينة :(ولا يأكل أحد في تلك البلاد السمن القديم والشحم القويّ إلا أضَرَّ به مالم يكن حديث عهد بالبلد، فإذا طالت إقامته بالبلد تطبَّع بطبعهم. وطبع ذلك البلد المشرف وهواؤها قلما يوافق أحداً من أهل مغربنا الأقصى، ممّن بلده ريف ذات مياه وخصب، وإنما يوافق أمزجة أهل الصحراء كتوات وتجرارة(؟) وأهل السودان، وذلك ــ والله أعلم ــ لفرط حرارة هؤلاء، فقلّما رأيت أحدهم مريضاً في تلك البلد إلا مرضاً خفيفاً، وقلّما رأيت أحداً ممن بلده كبلادنا ريف وخصب إلا وقد ألَظَّ به المرض إلا القليل، ممّنْ طالت إقامته جداً في البلد وتطبع بطبع أهلها(٢) .

وقال : من يوم قدومنا للمدينة كل من تكلمنا معه من أصحابنا المجاورين يقول لنا : استعدوا لحمّى المدينة، فلا بُدَّ لكم منها. فإنها تحفة النبي صلى الله عليه وسلم وكرامته لجيرانه لتمحيص ذنوبهم. وكان بعض أصحابنا يمتعض(؟) من ذلك، و يشق عليه سماعه منهم، و يقولون : نحن نرجو أن تكون كرامة النبي صلى الله عليه وسلم لنا بغير ذلك. فكان أولنا وقوعاً في المرض، وأطولنا إقامة فيه، والله يغفر له و يُكفِّر زَلَلَهُ . وقال : ولا بُعْد ولا نكْرَ في تسمية الحمّى بتحفته

(١) : «العياشية» : ج١ ص٣١٠.
(٢) : ١ /٣٠١.

صلى الله عليه وسلم، ولذلك أصل في السنة، فقد ورد في بعض الأحاديث أن الحمى استأذنت على النبي صلىٰ الله عليه وسلم فقال لها :«اذهبي إلى الأنصار، فإن لهم علينا يَداً ــ أو كما قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم ــ وروى الإمام أحمد وغيره برجال الصحيح عن جابر : استأذنت الحمى على رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فقال :«من هذه؟ » فقالت : أُمُّ مَلْدَم. فأمر بها إلى أهل قُبَا، فلقوا ما لا يعلمه إلا الله، فأتوه فشكوا ذلك إليه فقال :«ما شئتم، إن شئتم دعوت الله أن يكشفها عنكم وإن شئتم تكون لكم طهوراً»؟ قالوا : أو تفعل؟ قال :«نعم» قالوا : فَدَعْها.

ولما قرب زمان انقضاء الحرّ، وأقبلت هوادي زمن البرد، وظهرت البرودة في الهواء صباحاً ومساء، أخذوا يدثرون أبدانهم في الثياب الكثيفة التي تلبس في أيام البرد الشديد ــ و يقولون : إن البرد في أول إبانه يسرع إليه فساد الأمزجة، وهو أضر من البرد الشديد الذي يكون في وسط الشتاء، و يقولون : إن الناس يلبسون من غليظ الثياب في آخر الخريف ما لا يلبسون في صحيح الشتاء، وشديد الزمهرير. وكنا نحن لإلْفِنَا البرد الشديد في بلادنا نتلقاه بأبداننا، ونعرِّي له أطرافنا فرحاً بقدومه، لما قاسيناه من شدّة الحرّ الذي لم نعهد مثله في قطرنا. فكانوا ينهوننا عن ذلك ولا ننتهي، و يقولون : ليس هواء هذه البلدة و بردها كالذي تعهدون. فكنا لا نلتفت لذلك، ثقةً بما نعهده في أنفسنا في بلادنا من الصبر على بردها الذي لايكون برد هذه البلدة بالنسبة إليه الا كنسبة زمان الاعتدال لزماني الحرّ والبرد ــ فكان ذلك ــ مع قدر الله تعالى ــ هو السبب في حصول المرض المتطاول بنا و بكل أصحابنا، ولقد صدقوا فيما قالوا، و يشهد له قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه : اتقوا البرد في أول إبانه، وتلقوه في آخر أوانه، فإنه يفعل بالأبدان ما يفعل بالأشجار، فأوله محرق، وآخره مورق، ذكره الزمخشري في كتاب«ربيع الأبرار».

خصوصاً في تلك البلاد، فإن بدن الإنسان يكون مشتعلاً حرارةً لغلبة الحرّ،

فإذا فاجأ البردُ البدنَ في تلك الحرارة أضرّ به، بخلاف البرد يجيء في آخر الإبّان فإنه يصادف البدن قد سكنت حرارته[1] .

الإدارة والحكم في المدينة

تُدار الأمور العامة في المدينة المنورة في الوقت الذي كان العياشي فيها(١٠٧٤هـ) من قبل أمير المدينة وولاة الأتراك، وأما شؤون الحرم الشريف فيتولاها شيخ الحرم، وشيخ الأغوات، والأغوات(الطواشية) يمثلون في ذلك العهد مُجْتَمَعاً له عاداته وتقاليده الخاصة ـ كما وصفه العياشي. فلنبدأ بهذا الوصف .

---

(١) : «العياشية» : بتصرف ١ /٣٠١.

الأغـــوات

الأغوات

وشيخ الحرم وهو كبير العبيد الأغوات الموقوفين على خدمة المسجد والحجرة الشريفة، والأغا بلغتهم كناية عن الخصي من العبيد، واختاروا وقف الخصيّ دون غيره لكونه أطهر وأنزه وأكثر فراغاً من الاشتغال، إذ لا أهل له ولا ولد يشتغل بهم، وهو أبعد من دنس الجناية ومباشرة النساء، وهم عدد كثير قريب من الثمانين، يزيدون وينقصون بحسب كثرة الراغبين في الوقف وقلّتهم، والأربعون منهم هم الكبار الذين يأتي رزقهم ومؤونتهم من بيت المال، وما زاد على ذلك إنما يرزقون من الأوقاف التي لهم بالمدينة، أو مما يأتيهم من الهدايا والصدقات من أقطار الأرض، ويسمى ما سوى الأربعين البطالين، لأنهم إنما يستعملون في الأشغال التي هي خارج الحجرة والمسجد النبوي من الأعمال الممتهنة، ولا يجلسون مع الأكابر في الدكة، وإنما يجلسون خارجها، ولهم ضبط وسياسة كسياسة الملوك، فلكل واحد منهم رتبة معلومة، وشغل معلوم. فإذا مرّ بالأصاغر أحد الأكابر قاموا كلهم، وكذا الأكابر فيما بينهم، فأكبرهم شيخ الحرم وهو يتجدد في الغالب إما في سنة أو سنتين أو أكثر، ولا يأتي إلا من دار السلطان من عبيده، ويليه النقيب، ويليه المستشار، وهو الذي يتولى قبض الصدقات وما يهدى لهم أو للحجرة، وبيده مفاتيح الحجرة وحوامل الزيت والشمع، وبيده جميع ما يتصرف فيه الأغوات من مصالح المسجد ومن أوقافهم، فإذا مات واحد من الأربعين دخل واحد من البطالين في موضعه، وهو من كان شيخ البطالين والترتيب في ذلك بالتقدم فمن تقدم مجيئه يقدم على من تأخر مجيئه، وليس فيهم شافعي ولا حنبلي، بل كلهم حنفية أو مالكية على مذهب ساداتهم الذين أوقفوهم، وذلك لأن الشافعية والحنابلة لايرون صحة وقف الحيوان.

ومن أوقف عبداً من الأغوات على الحجرة نُسِبَ إليه، سواء من التجار أو من الأمراء أو العلماء، فيقال : أغا فلان، وكلهم يبيتون في المسجد ما عدا شيخ الحرم والنقيب، وأما الآخرون فلا يبيت واحد منهم بداره إلا لعذر بيّن من مرض

أو نحوه، ولكنهم ــ جزاهم الله خيراً عن تعظيم المكان وتوقيره وتبجيله وكلهم أهل خير وبركة ــ قد اختارهم الله لخدمة أشرف البقاع، وشرفهم بالنسبة لأشرف الخلق صلى الله عليه وسلم(١) .

وقد كان كبيرهم المتسلم أيام مجاورتنا الآغا يحيى، وهو من أوقاف الشيخ الصالح الحاج الأبر سيدي أبو حفص ابن الشيخ عبدالقادر بن بو سماحة المغربي من ناحية فجيج، وتوفي الآغا يحيى بعد خروجنا من المدينة ونحن بمكة، وتولى مكانه الآغا مصطفى وهو مالكي أيضاً.. وكلاهما كان يبالغ في تعظيمنا والإحسان إلينا.

ومن عادة الأغوات كل ليلة إذا فرغ الناس من صلاة العشاء ورواتبها، قاموا بأيديهم الفوانيس الكبار ــ وهي الفنارات عندنا ــ مشعلة، ليخرجوا الناس من المسجد، فيأتون إلى المواجهة والصف الأول يقف بعضهم أول الصف ووسطه وآخره، فيخرجون كل من فيه، فإذا لم يبق أحد بذلك الصف، تكلموا بكلمة ذكر رافعين أصواتهم بها، فينتقلون إلى الصف الذي يليه، ثم كذلك حتى لايبقى في المسجد أحد سواهم فيغلقون أبواب المسجد، و يطفئون المصابيح كلها إلا التي في مواجهة الوجه الشريف والتي داخل الحجرة، فيخرجون فرشهم من الحواصل، فينامون هناك، ولا ينام أحد منهم في المسجد، بل ولا يأتيه إلا من قصد ـهم الصلاة(؟) ومنهم أناس على قدم صدق في العبادة، وغالب نوم الصغار منهم في مؤخر المسجد.

ومن وراء المسجد في الناحية الشمالية ميضاة كبيرة، فيها بئر كبير وأخلية، وفتح لها باب إلى آخر المسجد، ولا يفتح إلا ليلاً بعد غلق الأبواب، وتسرج فيها المصابيح لوضوء الأغوات، وإزالة حقنة من احتاج إلى ذلك بليل.

فإذا أغلقت الأبواب هدأت الأصوات منهم، وخشعوا، فلا تكاد تسمع من أحد منهم كلمة، فن احتاج منهم إلى أحد كلمه كأخي السرّار.

ولقد رأيتهم يبالغون في خفض أصواتهم بالليل، حتى بالسعال والعطاس،

(١) : «العياشية» : ١ /٣٠٥ و«الناصرية» : ج ٦٦/٢ و٦٧.

وتـنـزل عـليهـم السكينة، وتلحقهم هيبة المكان، وليس ذلك منهم مجرد استعمال، بـل لـما يخالط قلوبهم من هيبة المكان. قال : ولقد أخبروني أنه لايقدر أحد منهم بـلـيـل أن يـصـل إلـى الـروضة ولطرف الحجرة والمواجهة إلى الأفراد منهم، وأنهم يـسـمـعـون بـالـلـيـل قـعـقـعة السقوف وقرقعة الشبابيك، حتى يظن أن أحد أبواب الحـجـرة فتح، أو أن بعض السقوف وقع، فلا يجدون شيئاً من ذلك، وذلك، والله أعـلـم، لـنزول ملائكة الرحمة على قبره صلىٰ الله عليه وسلم وقدوم بعض رجال الغيب للزيارة و يظهر ذلك بالليل لهدوء الأصوات به، وخلو المكان...

فـإذ كـان بـعـد الـثـلـث من الليل جاء رئيس المؤذنين، ففتحوا له وصعد إلى المـئـذنـة الـرايـسـية، وأذن وشرع في الدعاء والذكر والصلاة على النبي صلىٰ الله عـلـيه وسلم، فيقوم كل من في المسجد من الأغوات فيتوضؤون، ثم يصبحون كل مـا فـي المـسـجـد مـن المـصـابيح، فإذا فرغوا من الإصباح، وقرب الصباح، فتحوا أبـواب الحـرم، ولا يأتي وقت فتحها حتى تجتمع بأبواب المسجد جماعة كثيرة من المتهجدين، ينتظرون الفتح، فإذا فتحت الأبواب دخلوا مزدحمين، وتسابقوا الصف الأول مـن الـروضـة فيما بين القبر والمنبر، فمن سبق إلى موضع كان أحقَّ به، فإذا أراد الـقـيـام لحاجة كزيارة أو تجديد وضوء بسط نمرة(؟) له في محله، فلا يجلس أحـد فـيـه ولو أبطأ، وكثيراً ما يعتدي في ذلك أقوام فيدخلون مع أول داخل من غير طهارة لقصد السبق إلى الموضع وتحجيره، فإذا بسط فيه فروته أو منديله ذهب إذ ذاك إلـى الـطهارة فيحجر على الناس المحل، وربما عرض لأحدهم حاجة بمنزله أو فـي السوق فيترك النمرة في محله ولا يقربه أحد وإن أبطأ كثيراً، وفي ذلك من الضرر على المصلين مالا يخفى، على أن دخولهم مزدحمين، واستباقهم إلى الروضة حتى ربما سمع لأقدامهم من شدة العدو دويّ سوء أدب لايخفى...

وسـاداتـنـا الأغوات، رضي الله عنهم وجازاهم خيراً، لايغفلون طرفة عين عن حـراسـة الحرم الشريف وتأديب من أساء الأدب فيه بلغط أو رفع صوت أو نوم، ولـو فـي قـائـلـة إلا فـي مـؤخـر المـسـجـد، ومـن وجـدوه مـضـطـجعاً من دون نوم لـلاسـتـراحة، فإنْ مدَّ رجليه إلى ناحية الحجرة زجروه، وإن استقبل القبلة بوجهه أو الحجرة من غير أن يكون مستديراً لها تركوه، ولا يغفلون عن حضور المسجد في ساعة من ليل أو نهار، فإن خرجت طائفة جلست طائفة.

ولهم ديار وخدم وأتباع، وخيل وضياع، وسعة دنيا. ولا يشغلهم ذلك عما هم بصدده من خدمة المسجد، بل لبعضهم أزواج وسراري، اتخذوها للتلذذ بما سوى الجماع.

وأحكامهم فيما بينهم منضبطة غاية الانضباط، ولا يحكم فيهم سلطان ولا غيره، ولا يولى عليهم ولا يعزل منهم، إلا بأمر شيخهم. ولا يرث معهم بيت المال إن مات أحدهم، إنما يتوارثون بينهم. ومن وجبت عليه عقوبة منهم أو أدب أدبوه، من غير أن يكون لأحد عليهم ولاية، كل ذلك تعظيم لجانب النبي صلى الله عليه وسلم، أن تكون لأحد ولاية على عبده وخدم حجرته الشريفة، ولا يدخل معهم من العبيد الذين يهدون من الآفاق إلا من رضوا إدخاله، بمال يدفعه عنه سيده أو يدفعه هو إن كان له مال، ومع ذلك يبقى في رتبة الصغار المشتغلين بالخدمة الخارجة. فإن رضوا حاله وحسنت أخلاقه تركوه حتى تأتي نوبته في الدخول في زمرة الأربعين، وإن ظهرت منه خيانة أو سوء أخلاق أو سرقة أو شيء يشينه، نفوه إلى حيث شاء من البلاد.

وبالجملة فلعبيد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وخدّام مسجده جلالة قدر، وعظيم منصب، وسعة أرزاق، وكرم أخلاق، وهم أحقّاء بذلك.

ولكبيرهم كلمة نافذة في المدينة، تنفذ أحكامه، وتمضي تصرفاته، في القويّ والضعيف والشريف والمشروف، ويطأ عَقِبَهُ الكبراء والأشراف)(١) .

أمراء المدينة : قال في الكلام على الخطبة في المسجد النبوي الكريم :(ولم يكن يدعى في الخطبة يوم الجمعة إلا لثلاثة، أولاً ــ بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، والترضي عن الآل والخلفاء والصحابة ــ للسلطان الأعظم ملك الترك، إلا أنهم يبالغون في تعظيمه بأوصاف لاينبغي أن يعظم بها أحد من الخلق، خصوصاً بحضرة الرسالة(؟) وليس في تلك الأوصاف أحسن ولا أجمل ولا أكمل من قولهم فيه : خادم الحرمين الشريفين، فأكرم بها نسبة ــ وقد رأيت في بعض التواريخ أن أول من وصف بذلك من الملوك في الخطبة

---

(١) : «العياشية» : ٣٠٥/١ إلى ٣٠٩.

السلطان الأجل صلاح الدين آيوب، وأنه لما قال الخطيب ذلك وسمعه سجد شكراً لله أن أهَّلَهُ لذلك وسماه به... ثم بعد الدعاء لملك الترك موصوفاً بكونه ملك البرَّين والبحرين، والشامين والعراقين، يدعى للسلطان زيد بن محسن موصوفاً بكونه حامي الحرمين الشريفين. ثم يدعى لأمير المدينة السيد الحسين بن حماد موصوفاً بكونه حامي حمى المدينة وأميرها، على أنه — فيما يظهر — ليس له من ولاية المدينة وإمرتها إلا الاسم أو ما يقرب منها(؟) لأنه من تحت أمير السلطان زيد والتصرف لنوّابه وأقاربه.

وقد كانت إمرة المدينة فيما مضى والتصرف في ولايتها لبني حسين، كما أن مكة لبني حسن، وكانت تقع بينهما حروب، وكانت بنو حسن لهم قوة وبطش ربما غلبوا عليهم. والآن صار الأمر لبني حسن، فجمعوا الولايتين، ولم يبق لبني حسين إلا رسوم قليلة من ولاية المدينة، وصاروا كلهم إلا القليل بادية يرحلون وينزلون بنواحي المدينة، وهم قبيلة عظيمة قوية، ليس لهم اسم إلا بنو حسين، وكبيرهم الموسوم بولاية المدينة، نازل بالمدينة، وبعض أقاربه، ولهم شارة حسنة، ومنازل رفيعة تدل على نباهة الذكر)[1] .

تصرف الولاة في المدينة :(وعلى طول إقامتي بالمدينة لم أدر كيف تصرف الولاة فيها، ولا من له التصرف التام بها. فإن شيخ الحرم وهو كبير الخدام تنفذ أحكامه، وكبير العسكر الساكنين بالقلعة أمير أيضاً، وابن عم السلطان زيد وزوج ابنته السيدة تقيَّة النائب عنه في النظر في مصالح البلد كذلك، والأمير الذي تنسب إليه إمرة المدينة من الشرفاء الحسينيين كذلك. والحاكم الذي يسجن ويضرب ويقتل ويؤدب وهو من خُدَّام السلطان أيضاً، ولا أعلم هل لكل واحد من هؤلاء ولاية على القوم بالخصوص أو على عمل من الأعمال، ولم يشف لي أحد غرضاً في كيفية ذلك، ولم أبالغ في الفحص عنه، إذ لم يتعلق لي به غرض إلا مجرد العلم بالإحاطة بأخبار المدينة دينيِّها ودنيويِّها لحبِّي لها ولساكنيها)[2] .

---

(١) : «العياشية» : ١/٣٠٩.

(٢) : «العياشية» : ١ /٣٠٩.

نفوذ الأتراك في المدينة : وقال عن الأتراك :(بها طائفة كبيرة من عسكر السلطان، زاعمين أنهم معدون لحراستها، وفي الحقيقة إنما يأكلون مال السلطان في غير شيء فلا يغيثون ملهوفاً، ولا يردعون ظالماً)[1] .

(١) : «العياشية» : ١ /٣٠٢.

المناصب الشرعية

المناصب الشرعية

(والحاصل أن المناصب الشرعية كلها في البلاد المشرقية حجازاً ومصراً وشاماً من إمامة وخطابة وأذان وإقامة وقضاء، وفتوى وشهادة، بل ووقيد مساجد إنما تنال بالشراء من الولاة، فإذا مات صاحب خطة أو عزل دفع الراغب فيها مالاً للولاة فيولونه مكانه على أي حال كان من صلاحيته لذلك أم لا، فعظم الخطب على المسلمين والإسلام في ذلك خصوصاً منصب القضاء، فما رأينا ولا سمعنا في البلاد كلها بقاض يقارب الحكم بما يشبه أن يكون شرعاً، وإنما مدار أمرهم على الرضا جهاراً، فينقض الحكم الواحد في اليوم الواحد مراراً متعددة بحسب كثرة الرُّشَى وقلتها.. على أن بعض أصحابنا وهو الشيخ عبدالله باعفيف اليمني قد أثنى على قاضي المدينة لحينه وهو القاضي مكي ثناء حسناً وزعم أنه متبع للحق جهده وأنه من أصحاب شيخنا السيد محمد باعلوي اليمني المكي، وأنه هو الذي أمره بتولية خطة القضاء والبقاء فيها بعد إرادة التنصل عنها، وغالب الناس بالمدينة على خلاف مُدَّعى صاحبنا هذا في هذا القاضي والله أعلم بحقيقة أمره، بَيْدَ أن في سنة تسع وخمسين، وهي أول سنة حججت فيها، جاء إلى المدينة قاضٍ تركي من قبل القسطنطينية، فأظهر العدل فيها غاية، وأقام الدين على الحق ، وضرب على أيدي كثير من ولاة المدينة، ومنعهم من كثير من الباطل والظلم الذي هم به متصفون، فثقلتْ وطأته عليهم، واشتدت شكيمته على السلطان الأمير زيد بنفسه، حال بينه وبين كثير من مراداته التي على خلاف الديانة، وكان السلطان زيد قدم في تلك السنة إلى المدينة، وأقام بها مدة، فلم يزل يحتالون(؟) على القاضي حتى اغتيل ليلة من الليالي، وكان يأتي إلى المسجد النبوي قرب صلاة الصبح راكباً، يصلي في المسجد، فكمن له رجل قريباً من باب المسجد فضربه بجنبية فقطع بها أمعاءه، ففرَّ الضارب في ظلمة الليل، ولم يكن مع القاضي إلا قليل من خدامه، فأجرى فرسه من ألم الضربة حتى أتى باب المسجد، بل قيل : إنه دخل المسجد بفرسه حتى أتى وجاه الوجه الشريف، فنزل وأخذ بشباك الحجرة... ولم يرسل يده من الشباك حتى قبضت

روحه، وفرَّ الضارب، ولم يُدْرَ أين توجه، حتى سمع به بمكة أو بجدة، فأظهر السلطان التأسف على موته، وأظهر التفتيش على الضارب وزعم أنه لا علم له به، ولو علمه لنكّل به وقتله، والخاصة من الناس لم يصدّقوه في ذلك، وعلموا أنه لايقدر أحد على الجرأة إلا بإذنه، وأنه لا يخفى عليه فاعله لشدة حزمه، وعظيم مكره، وكثرة دَهَائِهِ حتى إنه لايكاد يخفى عليه سارق شملة بأرض الحجاز كلها فكيف يخفى عليه مثل هذا؟ .

فبالله أي قاضٍ بعد هذا الشهيد يقدر على إظهار الحق والقول به في هذه الديار وما شاكلها؟! وإلى الله المشتكى.)

العلمـاء في المدينـة
من أهلها ومن غيرهـم

العلماء في المدينة من أهلها ومن غيرهم

يُعْنَى الرحالون الذين يفدون إلى الحجاز ــ أعظم عناية ــ بالاتصال بعلماء الحرمين وغيرهم من الوافدين عليهما، لتلقي العلم والرواية عنهم، ولهذا تعتبر الرحلات من المصادر المهمة لدارسي الحياة العلمية في مكة والمدينة.

ورحّالتنا العياشي[1] من أولئك الذين حرصوا على الالتقاء بالعلماء في المدينتين الكريمتين، وقد تحدث فأوفى الحديث عمّن اجتمع به منهم، ممن نكتفي بسرد أسمائهم، فمنهم :ــ

١ ــ الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن عبدالرحمن الربيع[٢] (؟) اليمني، الزبيدي، وهو أول من قرأ عليه في المدينة وقال عنه :(ما سمعت أن في أقطار الأرض كلها على كثرة من سمعت أحسن منه تلاوة للقرآن) وأطال في الثناء عليه، بدأ القراءة عليه في صفر سنة ١٠٧٣ بالمسجد النبوي[٣] .

٢ ــ الملا إبراهيم بن حسن الكوراني الشهرزوري ثم الشهراني نسبة إلى شهران من بلاد الكرب[٤] أطال الثناء عليه وأخذ عنه، ثم اجتمع به مرة أخرى وزار معه شيخه الملا محمد شريف الذي قدم للحج هذا العام ١٠٧٣.

٣ ــ ياسين بن محمد بن غرس الدين الخليلي أحد خطباء المسجد الحرام وأئمته، قرأ عليه وأطال الثناء[٥] .

---

(١) : «العياشية» : ١ /٢٨٨.

(٢) : كذا ولعله(الديبع) بالدال.

(٣) : «الرحلة العياشية» : ١ /٣١٦.

(٤) : ١ /٣٢٠ إلى ٣٤٢(٢٢ صفحة) و٢ /٢٨٧).

(٥) ١ /٤٤٣.

٤ ــ إبراهيم ابن الشيخ خير الدين الخياري، قدم والده من القاهرة إلى المدينة سنة ١٠٢٧ فتولى الإمامة والخطابة والتدريس، وخلفه ابنه بعد وفاته، قرأ عليه، وأورد شيئاً من شعره، ومنه في مدح العياشي :ــ

مذ لاح بالمغرب المأهول فاضله
وراح مرتضعاً ثدي العلا ناشي

عاشت معالم أرباب النُّهى وسمت
ولا عجيب إذا عاشت بعياش

فليبق للعلم كي تبقى مدارسه
مأهولة يقتفيها الفاضل الناشي

وقال العياشي :ــ

سبرنا العالمين فما رأينا
كإبراهيم سيدنا الخياري

تخيَّره الزمان كما تراه
خياراً من خيار من خيار[١]

٥ ــ بدر الدين الهندي النقشبندي، قدم المدينة سنة ١٠٦٨ أخذ عنه وأثنى عليه[٢] .

٦ ــ عبدالله عفيف اليمني، اجتمع به في الطريق من مكة إلى المدينة ثم في المدينة، وذكر أن له قصائد نبوية وفي مدح شيخه محمد باعلوي الحضرمي المكي، المتوفى سنة ١٠٧١، وأورد له قصيدة نبوية وأخرى رائية في مدح شيخه وثالثة[٣] .

---

(١) : «العياشية» : ١ /٤٤٤ إلى ٤٤٩.
(٢) : ١ /٤٤٩ إلى ٤٥٣(٤ صفحات).
(٣) : ٢ /٢٨٩ إلى ٢٩٧.

٧ ــ أحمد بن تاج الدين : أطال الثناء عليه، وذكر عنه غرائب في علم الحساب والتوقيت، وأنه انفرد في تلك الأقطار بمعرفة علم السيميا والزيارج والحدثان[١] .

٨ ــ محمد بن سليمان الروداني ، ولقبه بحكيم الإسلام، وأطال الثناء عليه[٢] .

٩ ــ المُلاَّ نافع، قال عنه : ومنهم ــ يعني العلماء الذين اجتمع بهم في المدينة ــ الشيخ المسنّ المعقولي المفسر الملا نافع العجمي، شهير الصيت عند علماء العجم، وعند أرباب الدولة، تنثال عليه صلاتهم في كل أوان، ويرون له مزية على غيره، وقد سكن المدينة مدة، وهو شيخ كبير، قد أصابته آفة في رجليه، فصار يمشي على عصوين، يقرأ عليه «تفسير البيضاوي» في الحرم الشريف، ولا يحضر مجلسه إلا الأتراك، أو من كان عارفاً بلسانهم، فإنه إنما يكون يقرر باللسان التركي والفارسي، ولذلك لم أحضر مجلسه ولم أستفد منه شيئاً، والعارفون بلسانه يثنون على حسن تقريره وجودة ملكته[٣] .

١٠ ــ محمد الفزاري ــ من فزارة، بلدة بين أعالي النيل وأرض السودان، استوطن المدينة ٤٠ سنة، وقال عنه :(من أقدم المجاورين وأكثرهم معرفة للأماكن التي تزار)[٤] .

١١ ــ محمد بن علي بن عبدالقادر المالكي، أصل سلفه من المغرب، ولأسلافه في المدينة صيت، وبيتهم مشهور بالعلم، وهو أحد خطباء الحرم والمفتي المالكي، وأورد من شعره[٥] .

---

(١) : ٢ /٢ إلى ٣٠.
(٢) : ٢ /٣ إلى ٤٦(١٦ صفحة).
(٣) : ٢ /٥٧.
(٤) : ٢ /٤٦.
(٥) : ٢ /٤٧ إلى ٥٣.

١٢ ـــ يحيى بن الباشا الأحسائي، ووصفه بالنحوي وأورد طرفاً من شعره (١).

١٣ ـــ ومن علماء المدينة الذين لم يأخذ منهم ولم يأخذوا عنه: إبراهيم الحجار الحنفي، عمري النسب، من مدرسي الحرم.

١٤ ـــ الشيخ علي الضرير المالكي الأحسائي. جاور بالمدينة مدة طويلة، وله بعض معرفة بمذهب مالك. يدرس الرسالة أحياناً، وحضرت يوماً مجلسه عند المنبر النبوي، يسرد عليه«تفسير البغوي» أو«الدر المنثور» للسيوطي لا أدري أيهما لطول العهد، فلم أسمع تحقيقاً ولا تحصيلاً.

وهو رجل ذكي الطبع يكاد يحفظ كل ما يسمع، وربما هجم على إنشاء الشعر في بعض الأحيان، فتقع له أبيات تستطرف، في خلال الغثاء الذي يسيل به واديه، سمعته ينشد ذات يوم مطارحات زعم أنها وقعت بينه وبين شيخنا تاج الدين.

وقد جمعتني وإياه قافلة في رجوعنا من مكة إلى المدينة، فرأيت منه عجباً، يركب النجيب فيسير به العَنَقَ، فإذا وجد فجوة نَصّ من دون سائق ولا قائد.

وأخبرني بعض أصحابنا أنه ربما يمر راكباً من المدينة على طريق الفُرْع، فيتقدم أمام القفل وحده فلا يخطىء الطريق مع توعرها، وكثرة شعابها، والتفاف أشجارها، فينفذ فيها نفوذ الماهر الخرِّيت.

ـــ وما رأيته قط بالمدينة وأفنيتها ولا في الطواف، والسعي يحتاج إلى قائد.

ومن طالع «نكت الهميان في نكت العميان» لصلاح الصفدي لايستغرب مثل هذا من ذكائهم وفطنتهم، وناهيك بما يحكى عن الإمام الشاطبي أنه مرَّ بموضع في سفرة له وهو راكب فانحنى فوق الدابة، فقيل له في ذلك. فقال: أليس ههنا شجرة؟ فقالوا: ما نرى من شجر. فقال لهم: انظروا إن لم تكن هنا شجرة فلا تثقوا بشيء مما تأخذونه عني، فإني مررت بهذا الموضع منذ

(١): ٢/ ٤٣ ـــ ٤٦.

عشرين سنة، وفيه شجرة، فحفروا فوجدوا عروق الشجرة وأصولها، وقد اندثرت فروعها[1] .

١٥ ــ محمد السوداني : من مدرسي الحرم، وهو كفيف البصر[2] .

١٦ ــ محمد بن رسول الشهرزوري الحنفي، قال عنه : ذو الحسب الزكي والنسب العلي، وذكر أنه ربما درس في الحرم في فقه الشافعية[3] .

١٧ ــ أحمد البرِّيّ الحنفي : رئيس الخطباء وجمال الأدباء، وأحد الفصحاء اللسن! وذكر شعراً له حينما استعار منه جزءاً من طبقات الشافعية للسبكي[4] .

١٨ ــ الشيخ مرزا الشامي الدمشقي، قال عنه : له خبرة بطريق القوم، واعتناء بجمع كتب الفن سيما مؤلفات ابن عربي[5] .

كذا قال، وابن عربي وأمثاله ممن ابتلي بهم المسلمون، وآراء المحققين من العلماء فيه وفي مؤلفاته معروفة.

١٩ ــ عبدالله بن نُمَيٍّ العمودي اليمني، وصفه بالعبادة والتصوف.

٢٠ ــ حسن الْبَرِّي، ذكر أنه كان يجلس في الروضة فيجتمع إليه جماعة من العوام والطلبة، وذكر أنه سمعه يشرح حديث«إن الله يضحك إلى رجلين» الخ ومثّل لذلك بوحشي.

وقد كتب عن هذا منتقداً، وقال إنه لم يذكر ذلك له ولا لأحد من أصحابه خشية أن يظن به استراق السمع في مجلسه والتطلب لعوراته[6] .

---

(١) : «الرحلة العياشية» ٥٦/٢.

(٢) : ٢ /٥٧.

(٣) : ٢ /٥٧.

(٤) : ٢ /٥٨.

(٥) : ٢ /٨٥.

(٦) : ٢ /٨٨.

٢١ ــ جمال الدين النقشبندي، وصفه بكونه شيخه وأنه لقيه بمكة، وذكر أنه توفي سنة ١٠٧٦ ودفن بالبقيع. بلغه خبر وفاته وهو في المغرب[١] .

٢٢ ــ الملا محمد شريف ابن القاضي يوسف بن محمد الصديق الكوراني، من العلماء الذين اجتمع بهم وأجازه، وهو شيخ أستاذه إبراهيم بن حسن الكوراني[٢] .

عناية العياشي بوصف الكتب :

الكتاب هو أداة العالم، ووسيلته التي تنمّي علمه، ولهذا فليس غريباً أن يعنى العياشي بوصف ما يطلع عليه من نوادر الكتب.

قال في كلامه على قرية والّى[٣] :

وقد وجدنا في روضة محمد بن موسى الصالح المدفون في تلك القرية ، سفراً من نوازل البرزلي بخط الإمام ابن مرزوق، وقد أفسد القطر جانباً منه، ومعه إجازات لبعض السادة القادرية بخط مشرقي، وتعجبنا من وصول ذلك إلى هذه القرية، وما نظنه إلا من كتب سيدي محمد بن إسماعيل[٤] ، فإنه لما مات بتكورادن سنة ١٠٦٤ خلف كتباً كثيرة، وأوصى بها لخادم الروضة النبوية. وبقيت كتبه هناك مدة ثم حملوها إلى القليعة فارّين بها، لما بلغهم أن متولي البلد يتحدث بأخذها، ولم تزل هناك إلى أن ذهب سيدي علي ابن الشيخ الحفيان للحج بعد ذلك بسنين فبعثوها معه، وضاع كثير منها بسبب ذلك، وقد رأيت بعضها بالمدينة الشريفة ورأيت زمام ما وصل منها، وليس يشبه ذلك. وقد أخبرني بنفسه رحمه الله قبل موته بسنة، لما لقيته بفجيج أن كتبه تبلغ قريباً من ألف وخمسمائة تأليف، الذي بلغ منها إلى المدينة المشرفة نحو مائة وسبعين سفراً، رأيت منها جملة كثيرة. وهي كتب نفيسة جداً، اقتنى أكثرها لما كان بمدينة اصطنبول اشتراها له الوزير الأعظم... لما قال له : إن بهذه المدينة كتباً نفيسة

---

(١) : ٢ /٩٠.

(٢) : ٢ /٢٨٧.

(٣) : في الهامش : وهي بين أو جرت ونفزاوة.

(٤) : في الهامش :(محمد بن إسماعيل الكوراني).

وليس لي ما أحصل به أمنيتي منها. فبعث دلاّل الكتب وقال له : كل مايقع بيدك من الكتب فاعرضه على هذا الشيخ فما استحسن منها فاتركه له، وخذ الثمن من عندي لأربابه، فلم يزل ذلك دأبه مدة إقامته هناك(١) .

وقال أيضاً : ومما أتلفه هذا السيل(سيل ٩ شعبان سنة ١٠٧٣) الذي دخل المسجد الحرام بمكة، خزانة من الكتب لشيخنا أبي مهدي عيسى الثعالبي، كانت في المسجد على وجه الأرض، ولها باب مفتوح إلى المسجد بين باب حزورة وباب إبراهيم... أتى عليها الماء كلها ولم يسلم منها شيء، وكانت نحو ثمانين سفراً، فيها من نفائس الكتب وغرائبها التي لا تكاد توجد في غيرها. ما أكثر أسفه عليها بعد ذلك، فأمر بها، فحفرت لها حفرة في الأرض ودفنت فيها، وكان منها أجزاء من المدونة الكبرى التي هي أم الدواوين الفقهية ولم يسلم منها شيء، وكثر أسفي على عدم رؤيتها لغرابتها، وتكون أكابر الفقهاء من قبل هذه القرون لم يظفروا منها بشيء، وأظن أنه أخبرني أنه وجد المذكورة في خزانة رباط الموفق وأنها كانت بيد الإمام الحطاب . ومنها الأجزاء عيون الأدلة لابن القصار، وكان يثني عليه كثيراً في بسط أدلة المذهب والانتصار له والرد على المخالفين، مع التحقيق التام، إلى غير ذلك من الكتب منها ماهو ملكه، ومنها ما هو من كتب الوقف(٢) .

رحلة ابن رُشَيد(٣) : اطلع عليها ونقل عنها وقال :(نقلته من نسخة عليها خطه وإجازته لتلميذه صاحبه عبدالمهيمن الحضرمي رحمه الله، ورأيت هذه النسخة بمكة المشرفة عدة أسفار. وذكر في آخرها أنه استخرجها من مسوداته بعد عشرين سنة من رجوعه بسؤال عبد المهيمن المذكور منه ذلك قال : بعد ما كنت أغفلت ذلك وأعرضت عنه لقلة من يرغب فيه. فإذا كان الناس في زمانه لا يرغبون في جمع فوائد المرتحلين سيّما مثله في ضبطه وإتقانه وكثرة جمعه، فما بالك في زماننا هذا الذي عم فيه الفساد، وغلب على بضاعة العلماء، ولا يسمع من فوائد الرحلة

(١) : «العياشية» : ١ /٤٠ بتلخيص.
(٢) : «العياشية» : ٢ /٩٧.
(٣) : نشرت«العرب» كل ما يتعلق بالحجاز منها.

إلا ماكان أسماراً، وصارت صلة الأدب فيه أطماراً، فالمشتغل بجمع ذلك مثلي، أو من هو على شكل، ليس في الرأي ذا أصالة، إن لم يجعل ذلك عوضاً عن البطالة)[1] .

وقال أيضاً عن رحلة ابن رُشيد :

رأيت منها عدة أجزاء بمكة عند شيخنا أبي مهدي، وكانت في وقف المغاربة برباط الموفق، وعلى هذه النسخة خط المصنف في أماكن، وخط تلميذه الإمام عبدالمهيمن الحضرمي، وكانت النسخة ملكاً له.

ثم لخص منها فوائد[2] .

منتهى السول من أمداح الرسول صلى الله عليه وسلم : رأيت بمكة سِفْراً في الغالب الكثير من أمداح النبي صلى الله عليه وسلم، قال كاتبه في آخره : كمُل السفر التاسع من كتاب منتهى السول من مدح الرسول. وذلك في أوائل ربيع الآخر عام ٦٧٣ وكتب محمد بن أبي القاسم بن أحمد بن عبدالرحمن الأنصاري، قلت : وهذا التأليف لم يقصد به جامعه جمع كلامه أو كلام مخصوص، بل ما انتهى إليه من الأمداح النبوية وما شاكلها، والله أعلم كم بقي لتمام الكتاب.

ومن جملة ما في هذا السفر : المعلم الرابع من كتاب الدرَّة السنية في المعالم السنية، وهو في السيرة النبوية والأعلام المحمدية، للقاضي أبي عبدالله محمد بن عيسى بن محمد بن أصبغ الأزدي، وذكر في آخره أن عدد أبيات الكتاب سبعة آلاف بيت من الرجز، وأنه أنشأه بقرطبة سنة ٦١٤ في أشهر، آخرها مستهل صفر من السنة المذكورة. والمعالم الثلاثة لا أدري فيما هي؟

ومن جملة ما في هذا السفر، وهو نحو النصف كتاب اللآلى المجموعة من باهر النظام، وبارع الكلام، في صفة مثال نعل رسول الله عليه الصلاة والسلام. مما انتدب لجمعه رجاء نفعه عبدالله بن محمد بن هارون الطائي القرطبي، وسبب

(١) : ١ /٢٢٨.
(٢) : ٢ /٢٤٠ إلى ٢٥٦.

جمعه ــ على ما قال ــ : أنه سئل منه نظم أبيات تكتب على النعل المشرفة فكتب في ذلك قطعة، وندب أدباء قطره الأندلس لذلك فأجابوا، وكتب من ذلك ما وصل إليه، وجملة ما فيه من المقطعات ينيف على مائة وثلاثين بين صغيرة وكبيرة. قلت : ولم يطلع على هذا التألف شيخ مشايخنا الحافظ أبو العباس المقري مع سعة حفظه وكثرة اطلاعه، ومبالغته في التنقير والتفتيش عما قيل في النعل، ولم يطلع لمن قبل عصره إلا على عدد أقل من هذا بكثير، وغالب ما أودعه في كتابه«فتح المتعال في مدح النعال» كلامه وكلام أهل عصره، ولو اطلع على هذا الكتاب لاغتبط به كثيراً[1] .

تاريخ الإسلام للذهبي : قال عنه :(ومما رأيته من الكتب الغريبة بمكة المشرفة تاريخ الإسلام للحافظ الذهبي، وهو عشرة أجزاء كبار على السنين من أول الهجرة، فجعل كل عشر سنين طبقة، فصار سبعين طبقة، إلى آخر المائة السابعة، وهو كتاب حافل لم يدع شاذة ولا نادة مما تتشوق إليه النفس من علم التاريخ إلا أودعها كتابه مع الاختصار والإتقان، فكأنها جمعت له الدنيا وأهلها في صعيد واحد، وهو موجود في وقف قايت باي بمكة في رباطه المعروف. وقد رأيت منه أجزاء وطالعت بعضها، ومما قيدت من بعضها[2] :

طبقات الصوفية للمنوي : قال : ومن الكتب الغريبة التي رأيتها بمكة طبقات الصوفية للمنوي.. وقد أجاد فيها.. سيّما للمتأخرين من الصوفية فلم أر أخبارهم مستوفاة في غيرها[3] .

القوانين لابن أبي الربيع : قال : ومما رأيته بمكة، القوانين لابن أبي الربيع في علم النحو، ومما قيدته منها[4] :

---

(١) : ٢ /٢٥٦.
(٢) : ٢ /٢٥٧ إلى ٢٥٨.
(٣) : ٢ /٢٥٨ إلى ٢٥٩.
(٤) : ٢ /٢٥٩.

كتاب الجفر الكبير الذي قل أن يوجد في الدنيا. رآه عند الشيخ أحمد بن تاج الدين، في المدينة، ولخّصه[1] .

عنقاء مغرب ومعرفة فتح الأولياء وشمس المغرب لابن عربي قال : إنه استعاره من الشيخ مرزا الشامي الدمشقي في المدينة، وهذا الشيخ جمع من كتب الفن كثيراً سيما مؤلفات ابن عربي فله بها اعتناء، وقال عن الكتاب :(ما رأيته قبل ولا بعد إلا عنده)[2] .

١ ــ الخلفيات واسمها :«الفوائد المنقاة الحسان من الصحاح والغرائب» تخريج أبي نصر الشيرازي من أصول سماعات القاضي أبي الحسن علي بن الحسن بن الحسين الخلعي، وهي عشرون جزءاً، سمعها على شيخه الثعالبي[3] وانتقى منها.

٢ ــ أربعون حديثاً عن أربعين شيخاً لتقي الدين الفاسي مؤرخ مكة[4] .

٣ ــ شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة لأبي القاسم القشيري، رواها عن شيخه وأوردها ملخصة[5] .

(١) : ٢ /٢ إلى ١٧.
(٢) : ٢ /٨٦.
(٣) : ٢ /١٣٩ إلى ١٦١.
(٤) : ٢ /١٣٩.
(٥) : ٢ /١٦١ إلى ١٦٧.

المقــارنة بين
أهل مـكة وأهل المـدينـة في التحضر واللباس

المقارنة بين أهل مكة وأهل المدينة

في التحضر واللباس

وقال : وسألت شيخنا الثعالبي عن سبب إيثاره سكنى مكة فقال : إن أهل هذه المدينة قد تحضَّروا، وغلب عليهم طبعُ الأعجام، ورفاهيتهم وإسرافهم، وتشبَّهوا بهم في ملبسهم وفي غالب أحوالهم، وأنا امرؤ مسكين فقير، أخاف أن ينشأ أولادي وأزواجي، و يتطبعوا بطبعهم في ذلك، بخلاف أهل مكة، فإنهم لم يزالوا على أعرابيتهم واستعمال البداوة، وعدم المبالاة والاعتناء في الملبس والمأكل، قد غلبت عليهم البداوة، وكثرة مخالطتهم لأهل البادية، وسكناهم بها حتى أمراؤها من الأشراف فإن غالب سكناهم بالبادية، وإن كانت لهم منازل بمكة، ومن وُلِدَ له مولود منهم استرضع له عند العرب بالبادية، فلا يأتي به حتى يقارب الحلم. ولباس الملك وأولاده و بني عمِّه وإن كان في غاية الرفعة واللطافة فإنه على زيّ لباس العرب في تَعَمُّمِهِمْ وتَقَمُّصِهِم، فيلبسون العمائم القصار، ذوات الأهداب الطويلة، و يرسلون لها العَذَبة إلى قر يب من ذراع، و يلبسون الدشوت(؟) الرفيعة الإ أنها على هيئة دشوت الأعراب، ولا يلبسون الجوخ التي تلبسُها العجم، ولا الأقبية التي هي على زيّهم. و يلبسون النعال ذات السُّيُوْر التي على ظهر القدم دون السرموجة التي تلبسها الأعجام.

وعلى كل حال فأهل مكة قد غلبت البداوة على جميع شؤونهم، وظهرت فيهم، دون أهل المدينة، ولذلك قَلَّ سُكنَى الأعجام بها إلا القليل، لأنها وطن السلطان وأولاده وأقاربه، ونفوسهم لا تنقاد للذلّ وجر يان الأحكام عليها في كُلّ ورْد وصَدَر، مُشْمَئِزُّون من سكنى مكة، ويميلون إلى المدينة، لكون عسكر التُّرك بها، وهم جنسهم، وأحكام السلطان وإن كانت نافذه هناك أيضاً لكنها بعيدة منه، فليست كمحل وطنه.

أخبرني بهذا من سَبَر حال البلديْنِ وعلمه، ز يادة على ما رأيته أنا من ذلك.

العـودة من المدينة إلى مكـة

العودة من المدينة إلى مكة

قـال :(وتهيأ خروجنا من المدينة المشرفة ضحى يوم الثلاثاء(١٧ من شعبان)، وقـطعـت المسافة إلى ذي الحليفة راجلاً، فوجدنا القافلة بذي الحليفة ونزلنا هناك إلى أن قرب العصر فارتحلنا.

وهالـنـي الـركـوب فـي الـشقدف لأني ما عهدته قبل، وعادلني في الجانب الآخر أخـي عـبـدالرحمـن، ولم أسـتـأنس ركوبه إلا بعد مدة، وكان يخيل لي إذ صرت فـي جـنـب البعير أن الجانب الذي أنا فيه قد مال للسقوط، وكذلك كان يخيل لصاحبي حتى تمرَّنّا به فكنا ننام فيه ما شئنا، ونمدّ أرجلنا ونضطجع كيف شـئـنـا، وسـرنا غالب تلك الليلة منفردين عن القافلة لم نلحق من قبلنا ولا لحقنا مـن بـعدنا... إلى أن وجدنا القافلة في بطحاء الفريش، فملنا عن الطريق قليلاً وأنخنا تحت سمرة)[1] .

وصـف الـشـقدف : قال :(ولما انتصف شهر شعبان تأهبنا للسفر، واكترينا جملين بـثـلاثة عشر قرشاً، واتخذنا لركوبنا شقدفاً[2] وهبه لنا شيخ الأغوات آغا سليم.. وهـو محـمـل كـبير مـا رأيـتـه إلا في أرض الحجاز، ذو شقتين توضع كل واحـدة عـلـى جـنب البعير، ويقرن بينها بحبال وثيقة على ظهره، ولا بُدَّ للراكب فـيـه مـن مـعـادل لـه فـي الجـهـة الأخـرى، مقارباً له في الرزانة، ثم يوصل بين الـشـقـتين مـن أعـلـى بحـبـال يـظلل عليها بغطاء يقي الحرَّ والبرد، وهو من أشهى الـمراكب وأهناها، سيما لمن له فرش وثيرة ووسيدة يتكيء عليها من الجانبين، فإنه لا يـكـاد يحس بأن الإبل تسير به، فقد رأينا من اعتاد الركوب فيه ينام من أول الليل إلى آخره ولا يستيقظ إلا بإناخة الجمل عند النزول، وقد لايستيقظ)[3]

كـراء الـرواحـل : ومن عاداتهم في أكرية الرواحل من القوافل الذاهبة إلى مـكـة والـيـنـبع، أن... بالمدينة رجالاً يعرفهم غالب الحمالين، فمن احتاج الكراء

---

(١) : «العياشة» : ١ /٩٢.

(٢) الشقدف من المراكب القديمة كالهودج، وقد ورد وصفه في رحلة التجيبي.

(٣) : «العياشية» : ٢ /٩٢.

من أرباب الدواب وأرباب السلع أتى إليهم، فيعقدون له الكراء مع صاحبه، ويتكفلون بما عسى أن يصدر من الجمّال من غدر في الطريق بهروب أو مكر، ويسمّى أحد هؤلاء المُخَرِّج، فلا يعقد أمر كراء إلا بحضرة أحدهم.

وجلوسهم في الغالب بباب المصري، ويأخذون بذلك حلاوة من الجمال ومن المكري، وذلك دأبهم بمكة(١).

طريقة السير: — لم نعتد المشي في الليل كما هو شأن أهل تلك البلاد، فإن سيرهم بالليل، لايحملون الإبل من السير إلا ما سمحت به أنفسها عن اختيارها، فيتركونها تمشي على مهل بلا سائق، وذلك الذي أعانهم على قطع تلك المسافات بضامر إبلهم مع هزالها وضعفها.

وكما وصف العياشي الإبل في الحجاز هذا الوصف، فإنه قد وصف وسيلة الركوب الأخرى وقد سار عليها من مكة إلى جدة فقال(٢):

ولم أر أسرع شيئاً من حمر الحجاز ولا أوطأه مركباً، ولا أقل تَعَباً مع السرعة المفرطة في المشي، فلقد كنت أنظر وأنا راكب إلى أطرافي هل يتحرك منها شيء مع الإسراع في المشي، فلا يكاد يتبين لي حركة شيء منها، مع أن مركوبي ليس من أجاودها. فلقد أخبرت أنه كان حمار عند رجل من أهل مكة يصلي المغرب بجدة فيركب عليه ويصلي الصبح بمكة، وهي مسافة القصر تحقيقاً، وهم يتغالون في ثمن ما هذه صفته منها، فيبلغ الحمار مائة دينار ذهباً. وقد رأيت حماراً عند فقيه الحنفية الشيخ الزنجبيل رافقنا عليه من المدينة إلى مكة، تقتحمه العين، فأخبرت أنه اشتراه بقريب من ذلك الثمن)(٣).

وقد وصف المواضع التي مَرَّ بها وصفاً لايخرج عما وصفها به حين قدومه إلى المدينة. ومن ذلك:

البزوة: ثم ارتحلنا بعد الزوال من بدر، ونزلنا دور(؟) الخبت، قرب السبيل الأول الذي بالبزوة في وسط الليل، ووجدنا البزوة مخصبة كأنها بستان.

---

(١): «العياشية»: ١ /٣٠١.

(٢): «العياشية»: ٢ /٩٣.

(٣): «العياشية»: ٢ /١٠٤.

ثم ارتحلنا منه غداً قرب الزوال ونزلنا قرية مستيرة [1] قرب الصباح، ووجدنا البطيخ بها أرخص ما يكون حتى اشترينا خمسة بمحلّق[2] .

رابغ : ونزلنا رابغ.. ووجدنا السيول قد اجتاحت أكثر منازل أهله، وذهبت بمزارعهم وهدّت الجانب الذي فيه المنارة من مسجدهم، وأفسد الطريق، وتعبنا في قطع الوادي.

ثم ارتحلنا منه، وغوى أهل الرفقة عن الطريق في الرمال التي بينه وبين قُدَيْد، ونزلنا آخر الليل عند السبيل الذي هناك، ووجدنا به قهوة وقوماً يبيعون العلف والحبحب، ثم ارتحلنا منه ومررنا بقديد[3] .

عُسْفَان : ثم ارتحلنا من خُليص ومررنا بعسفان وسط الليل، وعندما مررنا بالثنية التي تهبط من خليص على عسفان، تنسَّمنا نسيماً طيباً وعرفاً ذكياً، استنشقه كل من معنا من راكب وراجل. وقلنا لمن معنا من العرب : ما هذا الشذا؟ فقال : عرف الخزامي، فإن منبتها في هذا المحل كثير. فسألت أحداً منهم وناولني ضغثاً منها فإذا هو نبت له زهرة وعَرْفٌ ذكي، من أذكى مشمومٍ شممناه في تلك البلاد...

وعند قرية عسفان فارقنا من الربع[4] ــ وهي القافلة بلغتهم ــ من أراد الذهاب إلى جدة، فعدلوا يميناً ودخلوا في إحدى تلك الشعاب التي بيمين القرية.

برقة : مررنا عسفان وسط الليل.... ونزلنا آخر الليل بمحل يسمى برقة، دون السبيل الذي هناك، فيه رمال ذات أشجار، بين تلك الرمال تلاع تمرُّ بها السيول، فيها مزارع ومقاثي كثيرة، تجلب منها إلى مكة وإلى جدة ومن الظهران وتسوقنا العرب هناك بالحبحب الكثير الحلو الفاخر.

ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا مرّ الظهران آخر الليل.

---

(١) كذا تكرر اسم مستورة.

(٢) : «العياشية» : ٢ /٩٤.

(٣) : «العياشية» : ٢ /٩٤.

(٤) الربع هم المرافقون والمصاحبون أياً كانوا.

الوصول إلى مكة :(ليلة الأحد ٢٩ شعبان).

ارتحلنا من مرِّ الظهران بعد الزوال ودخلنا مكة المشرفة بعد ما ذهب ثلث الليل، وكنا حرصنا على دخولها نهاراً، فأبى من معنا من العرب، لأنهم كانوا يخافون من أَخْذِ الأمير إبلهم يحملها إلى المدينة، فإنا وجدنا ولده في طائفة من العسكر بذي طوى، وقد أخرج مضاربه وخيامه إلى هناك برسم إلى المدينة.

وأنخنا في سوق باب إبراهيم بالسفحة(؟) التي أمام رباط الموفق الذي هو معدٌّ للمغاربة. ثم حملنا أمتعتنا إلى دار نزلنا بها وراء سوق الشامي من ناحية الباب الذي يلي دار الندوة قريباً من جبل قعيقعان في مكة المكرمة.

الرجوع إلى المدينة ثم العودة :

أقام الرحالة العياشي في مكة حتى انتهى الحج، ثم رجع إلى المدينة[1] .

في المدينة مرة أخرى : خرج من مكة ١٨ ذي الحجة سنة ١٠٧٣ فوصل المدينة ليلة ٢٩ منه. قال :(ولما وصلنا وجدنا أبواب المدينة مغلقة فطرحنا أمتعتنا بالمناخة قرب مسجد العيد، ونزل في مقام إسماعيل بن جعفر الصادق.

وأقام في المدينة خمسة أيام، وسافر يوم الخميس الثاني من محرم سنة ١٠٧٤[2].

من المدينة إلى ينبع : ارتحلنا صباحاً من ذي الحليفة، وأخذ الناس السير، ولم يقيلوا إلا سويعة قدر ما أكلوا قريباً من الفريش، ومررنا بشرف الروحاء قبل المغرب، ولم نبت إلا قرب منصرف الروحاء.

وفي الغد ارتحلنا ومررنا بمسجد الغزالة، وسرنا حتى نزلنا بالجديدة بعد ما اشتدت القائلة، ووقف الناس بها هنيهة ريثما أخرجوا أمتعتهم التي اختزنوها، فارتحلوا ولم ينزلوا إلا قرب الصفراء حيث تنصرف الطريق يميناً إلى ينبع....

---

(١) : ٢العياشية» : ٢ /٩٤.

(٢) : «العياشية» : ٢ /٢٨٧ ــ ٢٩٧.

وفي الغد ارتحلنا وملنا يميناً مع شعاب متوعرة، وعند المنصرف قبر يقال إنه قبر عبيدة بن الحارث سيد شهداء بدر، أحد المبارزين في ذلك اليوم، وزرناه وسرنا إلى قريب من الظهر، فوصلنا بسيط الدهناء، ووجدنا البركة المعمولة هناك ممتلئة ماء، ووقع شنآن بين المغاربة الأفريقيين والجوانيين، ولم ينزلوا حتى كاد يبدو لهم نخيل ينبع... وما سرنا قط مثل هذه المراحل طولاً إلا أن الله لطف بالركب فلم يروا محارباً ولا سارقاً[1].

من ينبع إلى صحراء سينا : لم أر فيما قرأت من رحلة العياشي في وصف الطريق من ينبع إلى صحراء سيناء ما أراه يضيف جديداً في تحديد المواضع التي مرَّ بها، سوى ما نقله عن رحلة ابن رشيد الفهري الأندلسي، وهي رحلة قد نقلتها ونشرت ما يتعلق منها بالحجاز في مجلة«العرب» غير أن في المخطوطة التي نقلت عنها كلمات غير واضحة أشرت إلى مواضعها. وها هو ما نقله العياشي من تلك الرحلة مما يتعلق بوصف هذا الطريق، مع ما يضيفه العياشي:

ينبع : قال ابن رُشيد : ولما وافينا ينبع خرج مغنُّون بأصوات طيبة عذبة، يرددون هذه الأبيات، ويحيُّون بها القادمين، ويحيون نفوسهم الميتة بطيب تلك النغمات :

أيها القادمون أهلاً وسهلاً
كيف نجد؟ وكيف بان المصلّى

كيف خلّفتم العقيق وسلعا؟
وقبا والنقا ومن ثمّ حلاّ؟

فأجابوا : للّه ما كان أهنا
زمن الملتقى، وما كان أحلى!!

قال ابن رشيد : لله درهم حادوا عن الجواب، لما رأوا أنهم لاعذر لهم في الإياب.

---

(١) : «العياشية» : ٢ /٢٩٨.

وينبعُ عن يمين رضوى لمن كان منحدراً من المدينة إلى البحر، رووا أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم صلى في مسجد ينبع، وهو من حديث محمد بن عمر بن أبي طالب رضي الله عنه.

قلت : يفهم من قول ابن رشيد : لله درهم الخ أن(كَيْفَ) في كلام السائل للإنكار والتوبيخ عن الرجوع من تلك الأماكن، وكيف طابت نفوسهم حتى خلفوها؟ وليس في الكلام ما يدل على ذلك، بل يمكن أن تكون للسؤال حقيقة عن تلك الأماكن على وجه التحسُّر والتحزُّن والاشتياق إليها كالتي قبلها، وإذا كان كذلك، فالجواب مطابق، لأنه إخبار بما يزيد في شوق السائل وحنينه إلى تلك المعاهد.

وأما مسجد ينبع فقد ذكر السيد السمهودي أنه من المساجد التي صلى فيها النبي صلىٰ الله عليه وسلم، وأنه مسجد القرية التي ينزل بها الحاج. وقد ذكر أهل السير أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم وصل إليها في إحدى غزواته.

وأما الأبيات المتقدمة فقد اشتهرت بين أدباء المغرب في قرب ذلك العصر، وعارضها بعضهم، وذيَّل عليها آخرون، وممن ذيل عليها الأديب البارع أبو بكر محمد بن يوسف بن الحسن بن حبيش اللخمي الزاهد نزيل تونس، المتوفى بها سنة ٦٨٧. قال العزمي(؟) بعد التعرف به، وذكر جملة مستكثرة من نظمه ما نصه : وأنشده بعض حجاج المغاربة هذه الأبيات ـــ فذكرها وذكر أنه سمعها بالبقيع(؟) وسأله أن يزيد عليها فقال رحمه الله :

حيث روض النعيم بالأنس يجنى
وعروس السرور بالسعد تجلّى

ـــ ثم أورد ٢٦(ستة وعشرين) بيتاً بعد هذا وقال : ثم أطال فيها، وهي كلها سَلْسَة غريبة المناحي، رائعة الألفاظ، عذبة المعاني[١] .

المغيرة : قال ابن رشيد : ووافينا من ينبع المغيرة، ماء يحتفر في أحساء. وضبط هذا الاسم مَفْعَلَةً ـــ بفتح الغين من التغيير. انتهى.

---

(١) : «الرحلة العياشية» : ٢ /٢٤١ ـــ ٢٤٢.

قلت : والماء المذكور يسمى في هذه الأزمان نَبْط، وما ذكر في ضبطه إن كان من التغيير ــ كما قال ــ فيكون مفعلة بفتح الغين المعجمة وتشديد الياء اسم مفعول، والذي ينطق به الكافة في أمثالها ــ وهي كثيرة ــ مُغيّرة بفتح الغين المعجمة، و ياء ساكنة خفيفة تصغير مغارة ــ من الغور وهو الأنسب بالأمكنة المسماة بهذا الاسم والله أعلم[1] .

مغارة شعيب : قال ابن رشيد : مغارة شعيب هي ماء مَدْين، بلد جذام، يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لوفد جذام :«مرحباً بقوم شعيب وأصهار موسى، ولا تقوم الساعة حتى يتزوج فيكم المسيح و يولد له».

ومدين الذي سميت به أحد بني وائل من جذام[2] .

القباب : قال ابن رشيد : ورحلنا من نخيل ضحى يوم الأربعاء إلى موضع يعرف بالقباب، وافيناه ضحى يوم الخميس، فيه مصانع للماء كثيرة، في جباب مَقْبُوَّة، وفيه غدر.

وأنشد في وصف تلك الليلة :

ليل كأنّ مداه عكس أحرفه
ليل، وليل، فلا طول ولا قصر

قال العياشي :ولا أثر لشيء مما ذكر من المصانع والجباب في وقتنا هذا في الطريق التي يسلكها الحاج في تلك الناحية، وأما البيت الذي أنشده، فليتأمله العارف بمقاصد البلغاء، هل يدل على طول الليلة وشدّتها أو حسنها واعتدالها، وهو إنما ساقه مساق الدلالة على طولها وشدتها، ولم يتبين لي الآن وجه ذلك[3]

(١) : «الرحلة العياشية» : ٢ /٢٤٣.
(٢) : «العياشية» : ٢ /٢٤٣.
(٣) : «الرحلة العياشية» : ٢ /٢٤٣.

فهرس الكتاب

الموضوع الصفحة

تقديم ٥

الرحلة ومؤلفها ٧

في الطريق إلى مكة ١٣

البركة ١٥

الدار الحمراء ١٦

عجرود ١٦

النابعة ١٧

وادي الخَروب ١٨

التّيه ١٨

النخيل ١٩

بر الصعاليك(بئر البارود) ٢١

عرقوب البغلة ــ سطح العقبة ٢١

العقبة ٢٢

حفاير النخل ــ ظهر الحمار ٢٤

شرفات بني عطية ــ عش الغراب ٢٤
غر يبه ٢٥
أبو العظام ٢٥
مغاير شعيب (مدين) ٢٥
عيون القصب ٢٦
المو يلح ٢٦
دار أم السلطان ٢٨
شق العجوز ٢٨
قبر الكفافي ــ الأز لم ٢٩
إصطبل عنتر ٢٩
وادى الأراك ــ الوجه ٣٠
أكرة ٣١
بين الدركين ٣١
العقبة السوداء ٣٢
الحوراء ٣٢
وادي العقيق ٣٢
النبط ٣٣

وادي النار ٣٣
الخضيرة ٣٣
الوعرات ٣٤
الينبوع(ينبع) ٣٤
جبل رضوى ٣٥
السقائف(دار الوقدة) : ٣٦
بدر ٣٧
لطيفة ٣٧
مسجد الغمامة ٤٠
البزواء ٤٠
سبيل محسن ٤٠
مستورة ٤١
رابغ ٤١
الرمال ٤١
هرشى ٤٢
قديد ٤٢
المشلل ٤٢

عقبة السكر ٤٢
خليص ٤٢
ثنية عسفان ٤٣
عسفان ٤٣
برقة ٤٤
وادي العميان ٤٤
مرّ الظهران ٤٤
سرف ٤٤
التنعيم ٤٥
الزاهر ٤٥
ذو طوى ٤٥
في مكة المكرمة ٤٧
الأمن في مكة ٥٠
الحرّ في مكة ٥٠
صفة البيت العتيق من داخل ٥١
أوقات فتح البيت ٥٢
جوّ مكة ٥٣

الآثار في مكة المكرمة ٥٣
جبل حراء ٥٣
غريبة ٥٤
غار جبل ثور ٥٤
دار المولد ٥٦
مولد فاطمة ٥٨
المودع ٥٨
رباط عبدالقادر الجيلاني ٥٨
مسجد الجنّ ٥٨
مقابر مكة ٥٨
قبر عمر العربي ٦٠
جبل أبي قبيس ٦٠
مولد عمر ٦٠
دار الأرقم ٦٠
حجر المرفق ٦٠
الآثار في منىٰ ٦٣
المبيت بمنى قبل الوقوف ٦٥

وصف الموقف النبوي بعرفة ٦٥
وادي إلنّار (محسر) ٦٦
في منى أيام التشريق ٦٦
وصف سوق منى ٦٧
ذبائح منى ٦٧
المنازل في منى ٦٧
الليلة الثانية في منى ٦٨
مسجد العقبة ٦٨
مسجد الخيف ٦٨
مسجد النحر بمنى ٦٩
مسجد الكبش ٦٩
انتهاك المساجد والمزارات خارج مكة ٦٩
التعجل من منى ٦٩
وصف منى قبل نزول الحجاج ٧٠
بعض من اجتمع به من العلماء في مكة ٧١
بعض عادات أهل مكه ٧٥
من عادات أهل مكة ٧٨

الشريف زيد بن محسن(حاكم الحجاز
من سنة ١٠٤١هـ ـ ١٠٧٧هـ) ٨١
الأمن في عهد الشريف زيد بن محسن ٨٧
المكوس على الحجاج ٩٠
الجعرانة ٩٣
مدينة جدة كما وصفها العياشي ٩٧
بلدة الطائف كما وصفها العياشي ١٠٥
في الطريق إلى المدينة المنورة ١١٥
المكارون من عرب الحجاز ١١٧
عنزة في طريق المدينة ١١٧
العرب والركب الشامي ١١٧
الجهل والفقر هما أصل الداء ١١٨
من مكة إلى المدينة ١٢٠
الطريق من مكة إلى المدينة ١٢٠
وادي الشريف (مر الظهران) ١٢٢
عسفان ١٢٢
خليص ١٢٢
قديد ١٢٣

السبيل بين قديد والجحفة ١٢٣
رابغ ١٢٣
سبيل محسن في البزواء ١٢٣
مسيترة (مستورة) ١٢٣
بئر المُلاَّ نافع ١٢٤
الجديدة ١٢٥
النازية ١٢٥
عرق الظبية ١٢٦
الروحاء ١٢٦
شرف الروحاء : قبور الشهداء ١٢٦
الفريش ١٢٧
مُفرِّح ١٢٧
في المدينة المشرفة ١٢٩
في الحرم الشريف ١٣٢
مساجد المدينة وآثارها ١٣٤
البقيع ١٣٤
مساجد المدينة ١٣٤
مسجد قبا ١٣٤

مسجد الجمعة ١٣٥

مسجد الفضيح ١٣٥

مسجد بني قريظة ١٣٥

مسجد مشربة أم إبراهيم ١٣٦

مسجد بني ظفر ١٣٦

مسجد الإجابة ١٣٦

مساجد الفتح ١٣٦

مسجد القبلتين ١٣٧

مسجد السقيا ١٣٧

مسجد ذياب ١٣٧

كهف سلع، وشعب بني حرام ١٣٨

المياه في المدينة المنورة ١٤٠

العين الزرقاء ١٤٣

بئر البصة ١٤٤

بئر زمزم ١٤٤

بئر السقيا ١٤٥

بئر البسيرة ١٤٥

بئر غرس ١٤٥
بئر رومة ١٤٥
بئر حاء ١٤٥
بئر بضاعة ١٤٦
بئر أريس ١٤٦
أهل المدينة عما وصفها العياشي ١٤٧
عادات أهل المدينة ١٥٠
نساء المدينة ١٥٧
من عادات أهل المدينة ١٥٧
الثروة والتجارة في المدينة ١٥٨
عادات أهل المدينة في المعاملات التجارية ١٥٩
الأسعار في المدينة ١٦٣
من عادات أهل المدينة ١٦٥
من عادات أهل المدينة النخاولة ١٦٩
الزيارات الرجبية ١٦٩
الصحة في المدينة ١٧١
الإدارة والحكم في المدينة ١٧٣

الأغوات ١٧٥

أمراء المدينة ١٨٠

نفوذ الأتراك في المدينة ١٨٢

المناصب الشرعية ١٨٣

العلماء في المدينة من أهلها ومن غيرهم ١٨٧

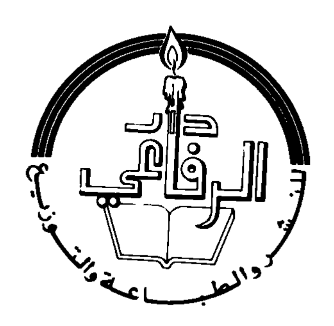
عناية العياشي بوصف الكتب ١٩٤

المقارنة بين أهل مكة وأهل المدينة
في التحضر واللباس ١٩٩

العودة من المدينة إلى مكة ٢٠٣

الرجوع إلى المدينة ثم العودة ٢٠٨

فهرس الكتاب ٢١٣



DAR ALRIFAI

FOR PUBLICATION, PRINTING
AND DISTRIBUTION
SAUDI ARABIA
P.O.BOX 1590 RIYADH 11441
TEL. 4777269

دار الرفاعي

للنشر والطباعة
والتوزيع
المملكة العربية السعودية
ص.ب: ١٥٩٠ الرياض ١١٤٤١
تلفون: ٤٧٧٧٢٦٩

